

الموسم

الهرسك

ماساة شعب وهوان مت

فواد شاكر



الدار المصرية اللبنانية

البوسنة والهرسك

مأساة شعب وهوان أمة

الناشر : الدار المصرية اللبنانية

١٦ ش عبد الخالق ثروت - القاهرة

تليفون : ٣٩٢٣٥٢٥ - ٣٩٣٦٧٤٣

فاكس : ٣٩٠٩٦١٨ - برقية : دار شادو

ص . ب : ٢٠٢٢ - القاهرة

رقم الإيداع : ٩٣ / ٤٣١٩

الترقيم الدولي : 7 - 069 - 270 - 977

جمع : آ. تك

العنوان : ٣٣٩ ش السودان - ت : ٣٤٧٢٥٥٥

طبع : للمصنف

العنوان : ٦٨ شارع العباسية - ت : ٨٢٧٨٥١

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة

الطبعة الأولى : ١٤١٣ هـ - ١٩٩٣ م

الطبعة الثانية : ١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

فؤاد شاکر

البوسنة والهرسك

مأساة شعب وهوان أمة

المنشور
لدار المعرف رتبة اللبنانية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

هوان أمة وإبادة شعب

من العسير - على القلب والفكر معاً - إفاضة الحديث عن شعب
معاصر لنا - يهان ويباد، على مشهد من العالم كله: المتقدم والمتأخر،
وتتابع وسائل الإعلام أحداثه الدامية المفزعة يوماً بعد يوم، وطوال
عامين، وكأنه مسلسل أمريكي تليفزيوني متصل الحلقات، لا يكاد أن
ينتهي، بل لا يريد له «البعض» أن يبلغ الختام. ونكتفى نحن - العرب
وأمة الإسلام - بالمشاهدة، والتعليق، وربما بالتأثر والتأفف العابر
للحظات: أليس هذا يدخل في دائرة «الإيمان».. لأنه إنكار بالقلب،
ولو أنه أضعف الإيمان...!؟

بماذا نصف أولئك الذين ينظرون - بلا مبالاة - إلى وحش أو
«عُتْل» على قارعة الطريق يُوسّع انساناً وديعاً مسلماً ضرباً وسحقاً.. أو
يرقبون ملاكماً جباراً ينهال بالضرب القاتل على أخ له وزميل،

والْحَكَمَ متشاغل بالتهام «كوز ذرة» مسلوق أو فطيرة
«بالمبرجر»!؟.. إلا إذا رجعنا إلى عصر الرومان الذين كانوا يمرحون
 ويفرحون بمشاهدة الوحوش البضارية وهى تمزق أجساد المحكوم عليهم
 سياسياً بالإعدام، فى حلبة المصارعة غير المتكافئة! (بالمناسبة: أوروبا
 والحضارة الغربية كلها وشعوبها تزهو وتعتز بانتسابها حياتياً إلى الرومان
 وقوانينهم).

لم يعد للمسلمين شوكة ولا صولة.. فالمسلمون اليوم - إمّا من
 فرط الترف والثراء واللّين، وإمّا من شدة الضعف والفقر والإذعان -
 لا يحاربون، أى لا يجاهدون! فى حين أنهم من أجل المال والتسلط
 والسلطان يتحاربون!

إن شعوباً وجماعات وجمعيات وأجناساً ودولاً، تَشَتَجِر وتجهد من
 أجل إطالة منارات المساجد، وإطالة شعيرات الذقون، وإطالة حبات
 المسابح، وإطالة أذيال السراويل، وإطالة أحاديث الشوق والوجد والصفاء
 والاصطفاء والعفة والنقاء.. فهذا - فى زعمهم - يكفى كمدخل إلى
 الجنة.. أما الهوان والصغار والمذلة بين الأمم.. فلا حرج.. إذ لا يكلف
 الله نفساً إلاّ وسعها!.

فساد . وكساد . وغشاء . فضجر!..

على عتبات القرن الحادى والعشرين، وفى فترة «الحمل» للنظام
 العالمى الجديد، تهيأ الأجواء، بالضرب والذبح والتقتيل والتدمير

والتأديب وإحلال القواعد وانتزاع المقاعد.. إنه أسلوب صارم عارم فى تذويب الحقوق الطبيعية فى الوطن، والثقافة، واللغة، والحكم.. وفى تهجير مكثف من وإلى مناطق المسلمين، على غرار ما حدث فى الإتحاد السوفيتى السابق ويوغوسلافيا سابقاً، وإحلال دخلاء غرباء مغتصبين، يزدون عدداً - وفقاً لسياسة مرسومة - فترتفع نسبتهم فى المواقع الجديدة، فيحق لهم المطالبة - ولو بالقوة - بحقوق (وقد تفرضها الأمم المتحدة!) ثم يصبحون هم «الأصل»، والباقيون تابعين لهم.. ها هو ذا الدرس الثانى - فى نصف القرن المنصرم - يعطى للدول الإسلامية، أو للبقايا «المتخلفة» من المناطق الإسلامية، فى أوروبا، وآسيا، ومن بعد فى أفريقيا.. وكان الدرس الأول فى فلسطين وقبرص!

فى عام ١٩٨٠ مات الماريشال «تيتو» موة غير طبيعية ولا إنسانية! فقد وضعوه - بعد أن بدأ الاحتضار وراح فى غيبوبة - داخل غرفة كبيرة بالمستشفى، وجسمه متصل بعشرات الأجهزة والأسلاك والخرائط والمضخات، واستمر على ذلك - وهو فى معزل عن الحياة وعن الدنيا - لمدة شهرين. فى حين كان السؤال على كل لسان داخل يوغوسلافيا وخارجها: «وماذا بعد تيتو؟» أو: «ماذا سيفعل اليوغوسلاف بعد تيتو؟»..

إن هذا الرجل - العامل البسيط فى مصنع الصلب - استطاع بجدارته أن يضبط بقدر كبير إيقاع الحياة والعلاقات بين شعوب

وأجناس وطوائف يوغوسلافيا، طوعاً أو كرهاً، لنحو خمسة وثلاثين عاماً متصلة (كما سوف نرى)، كما نجح في إكسابها شخصية دولية متميزة، وواجه ستالين وهو في ذروة سطوته وجبروته، متحدياً إياه في صراحة ووضوح: «لسوف نكون عند الكسر أشد صلابة من الجوزة»! وتلك الصلابة الأشد من الجوزة، هي التي حار فيها هتلر من قبل طوال أربع سنوات، حتى «خلعت» أسنانه، أما هي، فلم تنكسر!

إن يوغوسلافيا تتكون من شعوب ريفية جبلية لها تاريخ طويل مع الحرب والصبر، مع السلاح والكفاح، مع المقاومة والمساومة، وبعد خضوعها عدة قرون لسيادة الدولة العثمانية القوية السنية (أى الرفيعة المستوى)، لم تستطع أن تصمد بعد تيتو إلا لسنوات معدودات، ثم تفجر الحقد والصراع، وشراسة الأطماع، ومحاولة سافرة من داخل يوغوسلافيا وخارجها، لاستئصال المسلمين وإضعاف شوكة الإسلام، تحت أسماء وشعارات سادية خبيثة، مثل: «التطهير العرقي»، و «حماية القومية»، و «تجميع الأقليات» ... ورددنا نحن، بلا تفكير للأسف، هذه الشعارات والتضليلات، ولم نحاول مرة واحدة أن نسأل: لماذا تقولون الحرب بين الصرب والكروات والمسلمين وليس البوسنيين؟

هل جعل أعداء الإسلام الكارهون للمسلمين، من «العقيدة» جنسية وقومية وعرقاً في تصنيف الأعراق والأجناس؟ ألن يكون المسلم صربياً أو كرواتياً أو روسياً أو صينياً أو أمريكياً؟.. إذا كان الأمر كما يصفون ويصنفون، فإن «أمة الإسلام» كلها إذن - وحيثما يوجد

مسلمون - يُعتدَى عليها عدواناً وحشيّاً مهيناً سافراً، وهى لا تدرى،
فإن درت، فالمصيبة أعظم!

وما من جديد تحت الشمس.. فمنذ سنوات بعيدة، فى أثناء الحملة
الانتخابية بالولايات المتحدة، سئل المرشح «جيمى كارتر» عن الوضع
المنذر بالانفجار فى يوغوسلافيا، فأجاب: «لا يجب أن تقاتل أمريكا من
أجل يوغوسلافيا»!.. الجديد فى عالم اليوم، أن قيادات أمريكا والغرب
كله، تقاتل وتقتل - تحت علم الأمم المتحدة - فى الشرق الأوسط -
وفى الصومال، (وربما غداً فى إيران والسودان وباكستان) وهى لا تحرك
سائناً - برغم الجرائم والمذابح والتدمير والغصب والاعتصاب - إزاء
العدوان على مسلمى البوسنة أو الهرسك، مع مرور الشهور والأعوام..
والذين هم وحدهم الممنوعون من الحصول على السلاح والعتاد!

أولى بالمسلمين أن يعيدوا النظر فى أنفسهم، وأحوالهم، وقدراتهم،
وعلاقاتهم، وفى هوانهم وانتكاساتهم.. فلن يدفع عنهم أحد، ولن
يشفق عليهم أحد، حتى المولى - سبحانه - خالقهم والمنعم عليهم قال
محذراً: ﴿وَأَنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِّلَ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾.. (١)

من هنا:.. تعمداً الإفاضة فى فصل كامل عن هذا الرجل الخليفة،

(١) من الآية ٣٨ من سورة محمد.

أو السلطان العثماني «سليمان العظيم» كما أشرنا إلى موقف للخليفة
العباسي «المأمون» - بإيجاز حتى لا نطيل ونملّ - إعداراً إلى الله،
ووفاء بحق «رجالنا» على أمتنا وتاريخنا وحضارتنا، التي لا يكاد -
للأسف - أبتأوها الحيارى اليوم، يعلمون شيئاً ذا قيمة كبيرة عنها..
فلربما تذكّر بعض ممن بقى من جيلنا «رجالاً» سلفوا أشداء كرماء،
ولعل الجيل «الصاعد» اللاحق بنا ينتبه، ويتأمل، فيعتز بماضيه، ويعد
لمستقبله، على نحو أكرم وأفضل وأوعى..

ولله الأمر من قبل ومن بعد..

«والله غالبٌ على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون»..

القاهرة - رمضان المعظم ١٤١٣هـ

فؤاد شاعر

(١)

يوغوسلافيا والصرب

فى عام ١٩٢٩ ظهر لأول مرة فى التقسيم السياسى لأوروبا اسم «يوغوسلافيا» كدولة كانت قد حصلت على استقلالها عام ١٩١٨ تضم نحو عشرين مليوناً من السكان فى مساحة تقرب من ٢٥٦٠٠٠ كيلو متراً مربعاً، وفى عام ١٩٦٣ أعلن عن تقسيمها إلى ست جمهوريات اشتراكية فى اتحاد فيدرالى عاصمته بلجراد، وهى جمهوريات: سلوفينيا، كرواتيا، البوسنة - هرزجوفينا، مونتيجرو، مقدونيا، والصرب (وهذه الأخيرة تضم منطقتين تتمتعان بالحكم الذاتى هما: فوچفودينا، وكوزوفو، وفيها العاصمة الفيدرالية بلجراد). وعدد السكان فى يوغوسلافيا نحو ٢٥ مليوناً. والأديان السائدة هى: الإسلام - الأرثوذكسية الشرقية، والكاثوليكية الرومانية.

وليوغوسلافيا جيران - عل الحدود - كثيرون: فى الشمال: إيطاليا،

النمسا، المجر. وفي الشرق: رومانيا، بلغاريا. وفي الجنوب: اليونان، ألبانيا. وفي الغرب: بحر الأدرياتيك بشواطئه السياحية وجزره العديدة المتناثرة، وكان شاطئه الممتد من أقصى الشمال إلى الجنوب يسمى: شاطئ دالماتيا.

وتتمتع يوغوسلافيا بسهول، وجبال، وتلال، وحقول، ومراعٍ، وهضاب، وأنهار، وخلجان، وموانئ، ومدن، وقرى، وثروات كبيرة معدنية وبترونية، زراعية وحيوانية، صناعية وعمرانية، بشرية وحضارية. ويكفى مثالا لذلك بعض ما في جمهورية البوسنة - هرزجوفينا (أو الهرسك): إلى جانب الطاقات البشرية والفنية هناك موانئ للصيد والتجارة، ومزارع خصبة، ومراعٍ، وغابات، ومناطق وجزر سياحية، ومحاصيل: كالفاكهة، والقطن، والطباق (الدخان)، والزيتون، والقمح، والعنب، وفيها من المعادن: البوكسيت، والكروم، والحديد، والرصاص، وفيها من الصناعات: النسيج، والجلد، والحديد والصلب، والألومنيوم، والرصاص، والسجائر، والأخشاب، والورق، والسكر (من البنجر)، والصناعات الميكانيكية، والكيميائية، والسجاد، وتكرير البترول..

تلك المنطقة من العالم - يوغوسلافيا - لها تاريخ طويل متصل العصور والعهود والصراعات الدامية والحروب القاسية. لم يستقر بها حال ولا قرار، وكأنها لعبة في مباريات التاريخ: تتقاذفها الدول المجاورة، وتنتزعها أيدي القياصرة والأباطرة والملوك والسلاطين، وما زالت -

كما نسمع ونرى - مَحْطٌ أَنْظَارٍ وَمَنْهَلٌ أَطْمَاعٍ، وربما تكون في الغد القريب مضرب أمثال، لإرهاب الدول والمناطق ذات القوميات والأديان المتصارعة، ولا أحد يعلم بعد، ما يُخْفِي «النظام العالمي الجديد» الذي تَنْسَجُ في الظلمات خيوطه على مهل، وكم ستراق من أجله دماء، ويسقط ضحايا على عتبات القرن الجديد.

قديماً كان يُطلق على هذا الجزء من العالم صربيا، أو بلاد الصرب، وقد بدأ ظهور الصرب كجماعات مدنية منظمة في أواخر القرن الثالث الميلادي، في إمارات متناثرة يحكمها أمراء أو زعماء، في نهاية القرن التاسع الميلادي، وأجزاء من تلك المقاطعات تحت وصاية الدولة البيزنطية، ويدخل أمراء الصرب القدماء في المسيحية - حوالي عام ٨٧٥م - خضعوا شيئاً فشيئاً لسيطرة البلغار والبيزنطيين.

واستمر خضوع الصرب لنفوذ البلغار فترة طويلة. وفي القرن الرابع عشر الميلادي تمكنوا من التمرد. وبلغت الصرب ذروة القوة والنضال في النصف الثاني من ذلك القرن الرابع عشر (١٤) حين تمكن «إتين الحادي عشر» من الغزو والانتصار على مقدونيا، وألبانيا، وإيبيريا، وتَسَالَى، فتَوَجَّهَ البطريرك «بش» إمبراطوراً قيصراً للصرب واليونانيين (١٣٤٦) لكن إمبراطوريته انهارت وتفككت بعد موته، وتنازع خلفائه.

ثم دخلت صربيا الوسطى في حوزة العثمانيين بعد هزيمة

«كوزوفو» سنة ١٣٨٩. وفي القرن التالي انضمت إليها - تحت المظلة العثمانية - آخر الإمارات الصربية. وفي عهد العثمانيين حدثت عدة مقاومات عنيفة من جانب الصرب، وهرب كثير منهم إلى المجر، ثم اتجه آخرون نحو النمسا. وحاول بعض الصربيين المتمردين الالتجاء إلى قيصر روسيا، لكنه خيَّب ظنهم ومساهم. غير أن الاضطرابات الهادفة إلى الاستقلال ظلت مستمرة على مدار السنين، خاصة من أوائل القرن التاسع عشر. وفي عام ١٨٧٨ عارض الروس استقلال الصرب في أثناء مؤتمر الصلح في برلين.

وفي بداية هذا القرن (العشرين) قُتل الملك «الكسندر الأول» بسبب تمسكه بالسلطة المطلقة والقهر، وخلفه «بطرس كاراديو رديش» ملكاً دستورياً، ثم دخلت الصرب في تحالف مع الروس وفقاً لمعاهدة سرية (١٩١٢)، ثم تعرضت لهجوم من جانب النمسا وبلغاريا معاً، وقاومت مقاومة شديدة عام ١٩١٥، إلى أن أُعلن استقلالها بكل مقاطعاتها وشعوبها عام ١٩١٨. وفي عام ١٩٢٩ اتخذت لنفسها اسم «يوغوسلافيا» وفي الحرب العالمية الثانية احتلها الألمان النازيون عام ١٩٤١. وبعد الحرب أُعلن استقلالها عام (١٩٤٦) كجمهورية شعبية فيدرالية.

(٢)

يوغوسلافيا والكروات

الكروات سكان أصليون لمنطقتهم، كانوا يكونون مع الصرب مجموعة واحدة، ثم انشقت إلى قوميتين: الكروات المسيحيين الكاثوليك، ويقطنون الأجزاء العليا من نهر دراف^(١) ونهر الساف. وكرواتيا جمهورية في الاتحاد الفيدرالي اليوغسلافي (السابق)، ويسكنها نحو خمسة ملايين، وعاصمتها زغرب. وهي من أكثر جمهوريات الاتحاد السابق نمواً وتقدماً صناعياً واقتصادياً.

في العصر الروماني كان استقرار الكروات (في القرن السابع)، وفي القرن التاسع تحولوا إلى الكاثوليكية، ومنذ ذلك الحين نشأ العداء بينهم

(١) أو دراو بالألمانية، وهو يصب في نهر الدانوب، طوله ٧٠٧ كم، يبدأ من إيطاليا من جبال الألب ويعبر سلوفينيا وكرواتيا.

وبين الصرب الأرثوذكس، ثم اتخذوا لأنفسهم نظام الحكم الملكي، متراوحين في الخضوع لمن حولهم من الممالك والإمبراطوريات، مثل ألمانيا، والمجر (هنغاريا) التي ظلت تسيطر عليهم لثمانية قرون تحت مظلة تاج «القديس إيتين». إلا أن كرواتيا احتفظت بعلمها ومجلسها التشريعي (دييت).

وفي عام ١٥٢٦ دخل جزء كبير من كرواتيا في نطاق الدولة العثمانية، وضمنت معاهدة «كارلوفيتز» احتفاظ الأتراك بكرواتيا. في عام ١٨٠٥ ضم الإمبراطور الفرنسي نابليون مناطق كرواتيا وسلوفينيا إلى حوزته، ثم افتقدها عام ١٨١٣.

ومع ابتعاث القومية - عام ١٨٤٨ - انضم الكروات إلى حكم أسرة الهابسبورج المجرية الكاثوليكية، وبعد أن طرأ نظام الحكم المزدوج: النمسا - هونغاريا (المجر) عام ١٨٦٦، حصل الكروات على شكل من الاستقلال الذاتي واستخدام اللغة القومية الكرواتية. وعلى الرغم من أنه في عام ١٩١٨ كوّن الكروات مع الصرب والسلافيين الدولة المستقلة التي اتخذت اسم «يوغوسلافيا» في عام ١٩٢٩، فإنه منذ ذلك الحين بدأت القلاقل والاضطرابات. وحاول الكروات بكل قوة وعزم الاحتفاظ بنزعتهم القومية بزعامة حزب الفلاحين الذي كان يقوده «إيتين راديش». وفي ٦ يناير ١٩٢٩ أوقف الملك الكسندر العمل بالدستور وأعلن الحكم الديكتاتوري. ومع ذلك ظلت مقاومة

واضطرابات الكرواتيين مستمرة، ولم تهدأ إلا بقتل الملك وزوجته عام ١٩٣٤. عشية الحرب العالمية الثانية حصل الكروات على مطلبهم من الحكم الذاتى لقسم كبير من أراضيهم، وفي الفترة من عام ١٩٤٢ إلى ١٩٤٥ تحولت كرواتيا إلى حماية وسيطرة النازى الألمان والفاشيست الطليان، إلى أن أصبحت - بعد الحرب - إحدى جمهوريات يوغوسلافيا، ضمن مجموعة الدول الاشتراكية التى كانت تدور فى فلك الاتحاد السوفيتى (السابق) غير أنها - يوغوسلافيا - اتخذت لنفسها مساراً شيوعياً خاصاً منذ عام ١٩٤٨ - كما سوف نرى - مما أعاظ ستالين، فحذر الدول الشيوعية الأوروبية مثل: بولندا، والجر، وبلغاريا، وتشيكوسلوفاكيا (سابقاً أيضاً!) من مغبة الخروج عن أسر الإطار الشيوعى الروسى، أو التماذى فى ميول القومية الانفصالية.

(٣)

يوغوسلافيا والبوسنة

«البوسنة - هيرزجوفينا» إحدى جمهوريات الاتحاد الفيدرالى اليوغوسلافى السابق، مساحتها ٥١١٢٩ كم^٢ ويسكنها نحو خمسة ملايين نسمة، معظمهم من المسلمين، وعاصمتها: سراييفو.

تمتد أراضيها من الشاطئ الإدرىاتيكى إلى سهول نهر الساف. فى الشمال: مرتفعات تغطيها الغابات، وتخرقها سهول تتخللها فروع هذا النهر. وفى الجنوب: هضاب قد يصل ارتفاعها فى بعض المواقع إلى ألفى متر. ويقطعها سهل نرتفا، الذى يعتبر طريقاً إلى بحر الإرياتييك. والمناخ السائد هو مناخ البحر المتوسط عند الشواطئ وما حولها، أما فى الداخل فيغلب أن يكون طقساً قارياً.

والأرض الزراعية خصبة، لكنها تحتاج لرعاية أفضل، إذ أنها تعطى محصولاً غير مرتفع، مثل: القمح، والذرة.

والرعى سمة أساسية فى مناطق المرتفعات والغابات. وفى باطن الأرض معادن كثيرة مثل: الحديد والفضة، والرصاص، والأملاح، والكربون (الفحم)، وفى مناطق الغابات تكثر الأخشاب وصناعاتها كالورق. وعلى رأس قائمة المصنوعات فى تلك المناطق البوسنية: التعدين، النسيج، الحديد والصلب، وتلك المرتبطة بالألبان واللحوم والفاكهة والأخشاب.

من أين جاء اسم بوسنيا (أو البوسنة) ؟ من أحد فروع نهر الساف، حين استقرت على ضفتيه وقريباً منه قبائل أدرجت فيما بعد - فى القرن السابع الميلادى، أى الأول الهجرى - فى عداد السلافيين، وقد ضمتهم إمارة خاصة بهم. وفى سنة ١٩٢٧ اقتطعت بلغاريا جزءاً من أراضيهم الشرقية، ووضعت الجزء الباقى تحت حمايتها، ثم استقلت البوسنة كولاية يحكمها أمير يعترف بوصاية ملك المجر (هنغاريا). فى القرن الرابع عشر، وبالرغم من النزعات العنيفة بين الأسر الحاكمة، انتزعت البوسنة استقلالها، من حدودها حتى الإداراتيك، وجاء ذلك ثمرة لنضال قاده «إثنين الثانى كوترومانيش» الذى خلفه ابن أخيه وأعلن نفسه ملكاً على البوسنة والصرب. لكن الأمور تدهورت نتيجة للصراعات الداخلية، إلى أن افتتحها السلطان العثمانى محمد الثانى عام ٨٦٨ هـ - ١٤٦٣ م. منذ ذلك الحين، بدأ يحكمها «باشا» من قبل السلطان، وسرعان ما دخل أهلها - طواعية - فى دين الإسلام.

ثم انتزع السلطان العثماني من أيدي النمسا منطقة «هرزجوفينا» التي اغتصبها وضمها إلى أراضيها في الفترة من ١١٣٠-١١٥٠ هـ (١٧١٨ - ١٨٣٧ م)، وضمها إلى البوسنة.

وفي القرن الثالث عشر الهجري (التاسع عشر الميلادي) طمعت الصرب - بعد ابتعاث النزعة القومية بها - في احتواء البوسنة وهرزجوفينا (الهرسك). وفي مؤتمر برلين (١٢٩٥ هـ - ١٨٧٨ م) قرر مؤتمر برلين أن يوضع تحت إدارة «النمسا - المجر»، مع الإقرار بسيادة السلطان العثماني عليهما، واستمر ذلك إلى أن تحقق الانفصال عن تركيا عام ١٣٢٦ هـ (١٩٠٨ م).

بسبب الضغينة الكامنة والعداء الساخط بين أهل البوسنة تجاه النمسا، وبسبب اغتيال شاب من القوميين الصرب «الأرشيدوق فرانسوا فرديناند» أثناء زيارته لمدينة سراييفو، اندلعت شرارة الحرب العالمية الأولى. وفي عام ١٣٣٧ هـ (١٩١٨ م) - أي عقب الحرب - ضمت البوسنة - الهرسك (هرزجوفينا) إلى ما أطلق عليه اسم «يوغوسلافيا». وفي الفترة بين ١٣٦٠ - ١٣٦٥ هـ (١٩٤١ - ١٩٤٥ م) - أي في أثناء الحرب العالمية الثانية - أصبحت إحدى جمهوريات الاتحاد الفيدرالي اليوغوسلافي.

الآن، لابد لنا من وقفة متأنية إزاء «رجلين» أو شخصيتين متميزتين، كانت لهما تأثيرات تحويلية كبيرة على تلك المناطق وشعوبها: «سليمان» و«تيتو»..

(٤)

سلطان السلاطين

ليس هذا اللقب من ابتكارنا..

وإنما هو بعض ما أضفاه المؤرخون على هذا الرجل وأضافوه إليه، وهم - فى ذلك - من الشرق ومن الغرب سواء.

فهو بحق، كان سلطان السلاطين، فاتح قارات ثلاث: سليمان الأول، الذى هز بعنف عالم القرن السادس عشر وجعله يترنح، فدفع بالإمبراطورية العثمانية إلى ذروة مجدها وعظمتها.

يعرفه الأوروبيون باسم «سليمان العظيم». ويطلق عليه العرب والمسلمون اسم «سليمان القانونى». أما هو، فقد جمع باقتدار بين كفاءتين متميزتين: استراتيجية عسكرية باهرة، وتشريع قانونى مبجل.

فى ذلك العصر - عصر سليمان القانونى العظيم - عاش العالم فى

حرب شبه دائمة: الشرق فى مواجهة الغرب. قوتان كبيرتان، لكل منهما عقيدته ومفاهيمه وأخلاقيات حضارته الدافعة المسيطرة، فاشتبكا فى صراع دموى عنيف على الأرض، وفى البحار، وعلى امتداد ثلاث قارات، إنها الحرب المقدسة، يغذوها ويؤجج نيرانها ضراوة المتحاربين باسم الإيمان، وشهد الزمن، تدفق جيوش السلطان العثمانى - وهو بمثابة سيف الإسلام - تتدافع نحو قلب أوروبا الشرقية: من بلجراد إلى بودابست. ثم تخترق ظافرة - الأودية والسهول والقرى والمدن والعواصم، حتى تقف متحفزة تحت أسوار فينا.

وفى الجنوب، حول شواطئ المحيط الهندى، تتلاقى - فى غضب - أساطيل القوتين العظميين بجيوشهما المتحاربة، وفى الخليج العربى، وفى البحر الأحمر، ثم البحر المتوسط الذى يشكل حلبة صراع شرس لا يكاد يهدأ أو يتوقف.

وفى نفس العصر الذى ظن فيه كريستوف كولومبس أنه يتجه غرباً. فى طريقه إلى الهند، وتحقق لفاسكو دى جاما أن يصحح المسار - بمساعدة وتوجيه أمير البحر العربى أحمد بن ماجد - بالدوران بسفنه حول أفريقيا، ونجح ماجلان فى إكمال الدائرة، برحلة بحرية ربطت إلى الأبد الشرق بالغرب. من أطراف المعمورة.

إنه عصر بارود المدافع، الذى أضاف للقوة العثمانية الضاربة قيمة متزايدة، وجعلها أشد فتكاً وأبعد مدى وأكثر رهبة من ذى قبل،

وأكسب أبراج القلاع الحصينة منظراً يجمع فى التناقض بين الأسى والطرافة. لقد أصبح فى مقدور الجندى البسيط أن يطيح من موقعه على البعد، بالفارس المقدام النبيل، فيطير مترنحاً فى الفضاء متخلياً عن فرسه، ثم يهوى إلى الأرض من أعلى البرج، ممزقاً تقطر منه الدماء.

وبالمثل، علّت وهوت نجوم الأعلام والمشاهير الذين عُرف بهم هذا القرن (العاشر الهجرى/ السادس عشر الميلادى): شارل الخامس سليل أسرة هابسبورج الملكية، ورأس الإمبراطورية الأسبانية ووريث الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والذي نذر نفسه للجهاد ضد الإسلام. وفرانسوا الأول، ومنافسه الميكيافيلى الماكر العنيد، ملك فرنسا المتشع بالمسيحية المتعصبة، لكنه على استعداد لأن يبيع نفسه للشيطان أو لسلطان الأتراك من أجل امتلاك إمارة ميلانو، شريان الحياة بالنسبة لإيطاليا. ومارتن لوثر، المصلح الدينى الذى فصم - عن غير قصد - عرى الوحدة المسيحية، وحظى بحماية الإمبراطور شارل! وهنرى الثامن، ملك إنجلترا، الحليف الزئبقى المتذبذب، وهو فى نفس الوقت، عدو الثلاثة هؤلاء اللدود، وحامى حمى الإيمان، والذي انفصل عن بابوية روما حتى يتمكن من طلاق زوجته عمة شارل. ثم.. إيثان الرهيب، الذى دفع بإمارة موسكو إلى التوسع والامتداد، وإلى المدى الذى لم يتوقف حتى انهيار روسيا مع أفول القرن العشرين.

فى مركز هذا المسرح العالمى، يقف فى ثبات راسخ، فى شموخ

يعلو فوق الجميع: سليمان، أمير المؤمنين، ظل السماء على الأرض،
حامى حمى المدائن المقدسة: مكة المكرمة والمدينة المنورة وبيت
المقدس، سيد ملوك العالم، مانح القوانين، ملقى الرعب والإعجاب معاً
فى قلوب أهل الغرب جميعاً، حتى لقبوه بـ «العظيم» أو «المهاب»
[Le magnifique - The Magnificent]. ولا غرواً فلقد رفع سليمان
الإمبراطورية العثمانية إلى ذروة القوة والمجد وهو يحكم بحكمة وقوة
واقترار من قلب مدينته الجاهزة على الدوام لقيادة العالم: استانبول أو
القسطنطينية الشهيرة، التى أنشأها الإمبراطور قسطنطين الكبير قبل اثنى
عشر قرناً عند ملتقى طرق أوروبا وآسيا.

وفى عام ٩٣٢ هـ - ١٥٢٥ م، كتب سفير فينا فى القسطنطينية
يقول: «لست أعرف دولة أكثر هناءً ورفعة من هذه، فهى تسيطر على
مقادير الحرب والسلام مع الجميع، ثراؤها لا يحده، من الذهب والمال،
من البشر ومن السفن، ومن الطاعة والخضوع، لا تشبهها على
الإطلاق دولة.. فليحفظ الله إلى أبعد مدى هذا السلطان، أعدل
الأباطرة والملوك»!

ولقد عمر «سليمان» فى الواقع طويلاً، سواء فى سنوات الحكم أو
سنين العمر: إذ حكم إمبراطوريته ستة وأربعين عاماً متصلة، إلى أن بلغ
سن الثانية والسبعين، وهى سنوات غمرتها الانتصارات الظافرة، وإن لم
تخل من المأسى المحزنة.

على امتداد آلاف الأميال، شرقاً وغرباً، شمالاً وجنوباً، تجولت جيوشه الظافرة المكتسحة، قاد هو معظمها، من الدانوب، إلى أوكرانيا، إلى النيل، ومن شواطئ المحيط الأطلنطي إلى سواحل الهند.

إن الذى تتاح له فرصة زيارة «طوبقاي» - قصر السلاطين الشهير فى استانبول - يشعر أثناء تجوله بأطياف «سليمان العظيم» فى كل ركن من أركان القصر. وقد يسعده الحظ، فيلمس قفطانه الحريرى الذى كان يرتديه فى زهو، أو يتصفح ديوان شعره الذى خطه بيده على نحو مبدع، أو يطالع سجلات معاركه، وفيها تدوين - بقلمه - للوقائع يوماً بيوم! ولا بد أن يضاف إليها رسوم وتصميمات مهندس المعماري الفذ «سنان»، الذى أبدع على مدى نصف قرن، العديد من المساجد، والحمامات، والجسور، والمستشفيات، والمدارس، والشكنات، والأسواق المغطاة، والقناطر، والقصور، فابتكر وشيد أكثر من أى معمارى عُرف فى التاريخ!

ويطل على مدينة استانبول - من علي - ويرتفع نحو سمائها آلاف المآذن تدعو المؤمنين إلى الصلاة، مسجد سليمان المتسم بالجلال، وهو يمثل أسمى أحلامه.. وفى الحديقة الخلفية للمسجد، يرقد رفات السلطان المهاب، فى ضريح شيد من أجله، ودُفن فيه جثمانه.. دون قلبه!

كيف؟.. سوى نرى!

فى عام ٨٤٠ هجرية (١٤٣٥ م)، أنهت القسطنطينية أحد عشر قرناً من عمرها كعاصمة للدولة البيزنطية، وبدأت عصراً جديداً بدخول رايات الإسلام الظافرة، لترتفع على أسوار المدينة، وتحف بموكب السلطان العثمانى محمد الفاتح، الجد الكبير - قدراً ومكانة - لسليمان القانونى. وسرعان ما تحولت المدينة التاريخية إلى عاصمة للدولة العثمانية (وكانت من قبل فى مدينة بورسة)، فشهدت أضخم وأسرع عملية تجديد مدنى وحضارى حظيت به مدينة من قبل. الآن، أصبح على عرش قيصر، أحفاد قبائل الترك، ومنهم آل عثمان، الذين ينسبون إلى أول سلاطينهم «عثمان» مؤسس مملكة إسلامية قوية شديدة المنعة، اقتطعها من حافة الدولة البيزنطية شمال غرب الأناضول. وعلى المسرح العالمى، ظهر هذا السلطان الفاتح المنتصر، يعلن فى قوة وحزم، أنه وريث كل الأراضى التى كان يحكمها أباطرة الرومان، ورحب به المؤرخون وكتاب الحوليات، باعتباره «الإسكندر الأكبر» الجديد.

لم تخدم قط جذوة الأمل البراق المؤرق، فى ذهن «الغازى» العثمانى الشجاع المنتصر، فى تكثيف الجهود، والإعداد المحكم، لتوحيد العالم تحت راية الإسلام الخضراء، ومن هنا، بدأت عربته الحربية فى التحرك الرائق المكتسح، تطوى فى مسيرتها الصرب، وبوسنيا (البوسنة)، واليونان، وألبانيا، ومولدافيا، ولاشيا، وترانسلفانيا، والقرم،

ودالماتيا، وكرواتيا. ومن فوق أبراج فينا، كان في مقدور فرسان القديس مرقص أن يرقبوا - في دعر - على البعد، مشاعل الجنود العثمانيين الملتهبة ليلاً، تدفىء الأجساد، وتضئ الآمال، وتبعث الحياة، وتطارد الموت، وتكشف للفاتحين معالم الطريق!

وارتعدت فرائص روما، فتململ «البابا» أرقاً في فزع، وحالفه الحظ: إذ حال موت السلطان محمد الفاتح (٨٨٨ هجرية - ١٤٨١ م) دون دخوله العاصمة الإيطالية - كما تعود - في موكب النصر تحت راية الإسلام. وكان قد أقسم لـيَينين مسجداً ضخماً في قلب روما.

جرت العادة أن يظل موت السلطان العثماني في طي الكتمان، لا يكاد يعلمه إلا نفر قليل من الحاشية أو داخل القصر، إلى أن يتحدد السلطان الجديد فيعلن ذلك النبأ بنفسه وهو جالس على العرش في مقر الحكم بعاصمة السلطنة، فإذا كان وريث العرش (ولى العهد) بعيداً عن العاصمة في إحدى الغزوات أو الولايات (وكثيراً ما كان يحدث)، فإن عمال البريد - أو حملة الرسائل - المتجهين إليه قد يضلون الطريق أو يضلّلون، ووزير السلطان الراحل قد يتأمر فيعمل على تولية من يحقق له مأربه، وأمراء الجيوش والقادة والجنود قد يعلنون العصيان ما لم يسكتهم عل الفور بريق الذهب وموفر العطاء والخصصات.

كان «سليمان» في سن السابعة من عمره حين وطّد الشاه

إسماعيل سلطة الأسرة الصفوية فى إيران، فتظل مصدر إرهاب وإزعاج له، معظم سنوات حكمه، ففارس (إيران) التى استمرت مناطق متنافرة مفككة لعدة قرون، أصبحت تحت حكم الصفويين دولة متماسكة متنامية فى التوسع والامتداد، يحكمها المذهب الشيعى، وهى تهدد جيرانها المسلمين. وفى عام ٩٢٠ هـ - ١٥١٤ م يغزو السلطان «سليم» أرض فارس ويدمر جيش الشاه إسماعيل فى «شالديران» ثم يخرب العاصمة تبريز، لكنه لم يغفل وهو يسوق الأسرى والغنائم، أن يحمل معه خيرة الفنانين والحرفيين، ومعهم أفضل التحف والأعمال الفنية، التى أصبح لها - فيما بعد - تأثير كبير على الفن العثمانى.

ثم استدار «سليم» نحو الممالك، الذين أثاروا المتاعب عند حدود الدولة العثمانية، فدارت المعارك الطاحنة قرب حلب وحول القاهرة، وانتهت بالقضاء النهائى على دولة الممالك وذبح «سليم» آخر سلاطينهم. وبهذا ضاعف من مساحة إمبراطوريته، فأصبحت تضم هلالاً ضخماً يحيط بشرق البحر المتوسط، ويمتد طرفه غرباً ليضيف إليه شواطئ شمال أفريقيا، وجنوباً ليحتوى سواحل البحر الأحمر.

الآن، يحتل العثمانيون موقع الصدارة من العالم الإسلامى، وقد أصبحوا قادة الإسلام بعد أن قبضوا على زمام السلطتين: الروحية والزمنية. غير أنهم احتملوا على أكتافهم عبء المواجهة مع شرين خطيرين: الهراقلية أصحاب البدع، والكفرة غير المؤمنين.

ووفرت مصر خيرات ومزايا كثيرة، فقد أصبحت صومعة الجبوب للإمبراطورية العثمانية مثلما كانت بالنسبة للإمبراطورية الرومانية، وهى - أى مصر - مصدر ثروات وأموال لا تنقطع، ومورد رئيسى بشرى لأُستهان بقيمته فى تجهيز الجيوش.

أدرك «سليمان» منذ صباه ذلك كله وشهد وقائعه وأحداثه. غير أن الحياة مع الأب، لم تكن دائماً على نحو هانىء مريح، فقد تخللتها أيام قاسية كئيبة، حتى فى ترابزون، المدينة الشهيرة على البحر الأسود، التى ولد فيها «سليمان» عام (٩٠٠ هـ) ١٤٩٤ م عندما كان أبوه أميراً عليها.

ولما كبر الغلام وأصبح فى سن الشباب، رضى لنظام التربية القاسى ليتدرب على أسلوب الحكم، واكتساب مهارة يدوية فى عملٍ من تلك الأعمال التى يحترفها الصُّنَّاع والعامة من الناس. فاختر أن يتقن كتابة الخطوط وصياغة المعادن النفيسة، فأسلموه إلى صائغ مجوهرات يونانى فظ يدعى قسطنطين، وقبل سن النضج واكتمال الخبرة والنمو، فرض عليه أبوه أن يخرج معه مقاتلاً فى حرب القرم، وحين يثوب سالماً من المعارك إلى استانبول، يقيم فى قصر «باخشى سراى» مقر السلطان وعاهل السلطنة، بنظام الحياة فيه الضاغط العَبَوس، والأُم، حفصة، أميرة شديدة السيطرة والمراس، عيناها دائماً نحو الابن، وتأثيرها عليه شديد، إذ لا يكاد يشعر بوجود الأب، لأنه مشغول على الدوام

فى الحروب والنزاع على وراثة الملك، فلما اعتلى «سليم» العرش، أفلحت الأم فى انتزاع موافقة الأب على أن يكون «سليمان» حاكماً لإقليم «مانيزا» الخصب، المطل على بحر إيجه، ومن هناك، اشترت له جاريتين چركسيتين أهدهما إليه، إحداهما «جولهار» - ومعناها وردة الربيع - استأثرت بقلبه، وحظيت بكل هواه، خاصة بعد أن أنجبت له «مصطفى».

وفى مانيزا، ظلت عين سليمان مفتحة على الدوام، مثلما ظلت «العيون» ترقبه من قريب وترصده من بعيد: عيون الأب، والأم، ورجالهما أو نساؤهما المدسوسين عليه، وعيون زوجات الأب ومحظياته وجواسيسهن، والمشاركين معهن - من الحاشية - فى مؤامرات الوراثة ومشاكسات الأسرة.

حقاً هو أمير يحكم فى إقليمه الصغير. لكنه - فى نظر الأب - مازال غلاماً غراً صغيراً، عليه أن يخضع لإشراف معلمه، ويلتزم بتوجيهاته ووصاياه: فالأمير العثماني - كما يقضى العرف - لابد أن يجيد حفظ ودراسة القرآن الكريم، والتاريخ، وسياسة الحكم، والعلوم، والفلك، والشعر، فعكف الأمير على دراسة ذلك كله وإجادته، وبذل جهداً كبيراً موقفاً فى كتابة الخطوط، حتى صار من أفضل الذين يكتبون ويزخرفون. وساعده على التفوق والإقبال على الدراسة والتعلم، فتى يقال له «إبراهيم»، واحد من أتباعه الذين تضمهم حاشيته الصغيرة.

ومن العسير أن نَحْصِلَ مقدار وعمق الصداقة الوطيدة التي ربطت بين سليمان وإبراهيم، برغم التباين الشديد بين جذور ونشأة كل منهما. فإبراهيم ابن صياد أسماك، حملة الغزاة الأتراك بين الغنائم التي جلبوها معهم من غرب اليونان. فتعلم في بيت من بيوت الأثرياء، في مانيزا، واعتنق الإسلام، ثم التحق بالخدمة في قصر الحاكم، سليمان، وأظهر تفوقاً ملحوظاً بسبب إجادته الوافرة لبضع لغات. ولذكائه، وجاذبيته، سرعان ما توثقت العلاقة والصداقة المتينة بين ابن السلطان وابن السمك، فهما لا يكادان يفترقان: في حلبة المصارعة يتنافسان، وفي ساحة الفروسية بالسيف يتبارزان، وبالسهم يتدافعان، وبالخيل يتسابقان، وعلى المائدة يأكلان. فإذا ما فرغوا، يجلسان لساعات طوال في مناقشة موضوع كتاب أو مطارحة الشعر، وإذا ما جَنَ الليل، أصغى سليمان إلى عزف إبراهيم على الكمان!

يأتى البريد مسرعاً إلى مانيزا عام ١٥٢٠، يحمل من استنابول النبأ الكبير: مات السلطان سليم.

ينطلق سليمان على فرسه يطوى الأرض ثلاثة أيام متواصلة، إلى أن يبلغ شاطئ البوسفور، فيستقبله الناس في العاصمة بكل المهابة والإجلال. وعند قدميه، وأمام قصره، تلتقى مياه أنهار الدانوب، والدينير، والدون، قادمة من الأراضى والسهول الفسيحة التي يمتد فوقها ظل السلطان. هنا، عند بحر مرمره، يتضاغط الماضي، ويمد في قنوات

الاتصال بين ملاحم طروادة، وأحلام جاليبولي، عبر الدردنيل وبحر إيجه، ثم تمتزج بمياه البحر المتوسط الذى يطمح سليمان أن يجعله بحيرة عثمانية.

وترنو عينا «سليمان» نحو التلال المنحدرة، تغطيها مساكن متراسة متماسكة، تأوى عائلات متجاورة من المسلمين والمسيحيين واليهود، جمّعهم جذه الكبير من أرجاء إمبراطوريته. منهم المسلمون واليهود الأسبان الذين طردهم معاً فرديناند وإيزابيلا، جاءوا آمنين بالإقامة هنا فى جوار الأتراك واليونانيين والأرمن، وشاركوا فى نشاط التجارة والأسواق المغطاة، لاخوف ولاحرج، فقد أباح السلطان للمسيحيين ولليهود ممارسة شعائرهم الدينية، واتباع تقاليدهم وطقوسهم وشرائعهم، مقابل جزية بسيطة (ضريبة الدفاع) تعفيهم من الالتحاق بالخدمة العسكرية، والاشتراك فى الجهاد والحروب.

أدرك العثمانيون بوضوح ذلك البؤن الشاسع بين شطرى العالم آنذاك: مملكة (أو دار) الحرب التى تحف بأرض السلطان الغازى، ولا يكف أبداً عن ردع عدوانها وتمردھا. ومملكة (أو دار) السلام، التى تعيش فيها - متجاورة - كل الأجناس والأديان، تحت ظل السلطان وعدله. بهذا المفهوم المتنامى الإيمانى السديد، ازدهرت واتسعت طرق ومدينة التقاء قارات العالم، فظلت تنمو وتقوى وتتسع إلى درجة لم تجرؤ معها أية عاصمة أوروبية أن تنال منها أو تعتدى عليها، حتى نهاية القرن التاسع عشر.

وعند رأس «القرن الذهبى»، وبين أشجار السَّرو الباسقة، يبرز مسجد بسيط البناء، لكنه جليل القَدْر، إنه أحد الأماكن ذات القيمة الرفيعة داخل العالم الإسلامى كله، فهو يضم رُفات أبى أيوب الأنصارى، الصحابى الجليل (الذى نزل النبى صلى الله عليه وسلم فى بيته عقب هجرته إلى المدينة وظل مقيماً معه حتى ابنتى له بيتاً (حجرة) فى جدار المسجد النبوى)، الذى يعتبر مثالا للدعاة المجاهدين المسلمين. وقد اشترك فى أول حصار لمدينة القسطنطينية (سنة ٥٠ هجرية ٦٧٠ م) واستشهد عند أسوار المدينة، وصفوف المصلين فى هذا المسجد لا تكاد تنقطع. هنا، فى هذا المسجد تسلم «سليمان» بعد موت أبيه بثمانية أيام سيف عثمان، فى ذاك اليوم، أصبح اسم السلطان المهاب يُذكر فى خطبة الجمعة بكل مسجد، وينقش على العملة، وهو إذ يتسلم زمام السلطة المطلقة، وحق إهدار دم أى فرد من رعاياه، فى تلك اللحظة، لم يغفل عن طنين الجماهير التى احتشدت فى طريقه من مسجد أبى أيوب إلى القصر تهتف فى إنشاد دينى: «أيها السلطان لا تغتر، فإن الله أقوى وأكبر» ١.

وبدأ أعمال سلطته الرسمية على الفور، فأمر ببناء ضريح، ومسجد، ومدرسة تحمل اسم والده، وأطلق سراح ألف وخمسمائة أسير مصرى وفارسى، وعوَّض التجار عن البضائع التى كان صادرها أبوه سليم، وعاقب بصرامة شديدة اللصوص والمعتدين على الحرمات، فسرعان

ما أقبل عليه الناس وأحبوه، وعرفوا فيه الصلاح وحسن الخلق،
والشجاعة والعدل.

كتب أحد المراقبين السياسيين حين ذاك يقول: «يبدو للجميع أن
حَمَلًا وديعاً قد خَلَفَ سبْعاً ضارياً».

لم يَمُضِ وقت طويل، حتى أظهر الحَمَلُ أنه يُخْفِي في إهابه أسداً
فاتكاً، فحين رفع أحد الباشوات في الشام راية العصيان، أنزل السلطان
به عقوبة وحشية قاسية. ثم اتجه سليمان نحو الغرب، ليحقق مثل
ماحققه أبوه في الشرق. وفي أولى غزواته، والثالية لها، أفلح في إنجاز
ماعجز عنه جده محمد الفاتح!

وفي ربيع سنة ٩٢٨ هـ (١٥٢١ م)، يبدأ سليمان حملته الأولى
لغزو أوروبا، في ذات الوقت الذي وقف فيه «مارتن لوثر» ضد شارل
الخامس في المجلس التشريعي مطالباً بالإصلاح. وتسقط بلجراد -
همزة الوصل بين مقاطعات الدانوب ومفتاح البلقان - تستسلم بعد
أسبوع واحد من القصف والهجوم المكثف في عشرين حشداً متتابعاً.

وفي الصيف التالي يحاصر رودس - الجزيرة الشوكية في زاوية آسيا
الصغرى من الجنوب الغربي، والحصن الحصين لفرسان القديس
يوحنا (چون). إنها تقف عائقاً بين عاصمته ومصر، وأسطولها يعترض
بين الحين والحين سفن الجيوب المتجهة شمالاً نحو تركيا، كما
يضايق سفن الحجاج إلى بيت الله المعظم في مكة المكرمة، وتصدر

الأوامر، فتخرج على الفور ثلاثمائة سفينة من «القرن الذهبي» تتجه نحو ميناء الجزيرة «المقدسة»، فى حين يمضى «سليمان» يقود جيشه المكون من مائة ألف مقاتل، يخترق اليابسة، ثم تحملهم سفن أخرى إلى الجزيرة، ليحكم حصاره الشديد عليها فى التاسع والعشرين من يوليو.

ويمضى الصيف يتبعه الشتاء، والفرسان داخل الجزيرة - ومعهم الجنود المرتزة المسلحون - يستميئون فى مقاومة الحصار، فيحفر الأتراك الخنادق لتقترب ثم تقترب من أسوار قلعة الميناء، وتتحرك المدافع المهلكة صوب المدينة، وتدوى الانفجارات، وينطلق المهاجمون فى موجات عاصفة عاتية، فيسد المدافعون عن الجزيرة بأجسامهم الثغرات التى أحدثتها القذائف فى الأسوار.

بعد مائة وخمسين يوماً من المقاومة والضغط والدفاع، يتوقف النزال، فيخيم الصمت، لقد أخضع «سليمان» لسلطانه أكثر مدن العالم المسيحية كله تحصيناً ومقاومة، لكنه يظهر كراماً وسماحة وهو فى قمة انتصاره عندما قال: يستطيع الفرسان والمترزة أن يغادروا الجزيرة فى أمان - وبلا عقاب ولا مذلة - خلال اثنى عشر يوماً، وكل من يرغب فى الرحيل من المواطنين المدنيين يستطيع أن يفعل ذلك - بلا إكراه لو أراد - خلال ثلاث سنوات مع إعفائهم جميعاً من دفع الجزية. فينال «سليمان» إعجاب أوروبا بأسرها، لشهامته وحسن

معاملته، لكنه لم يقدّر الأمر حق قدره، حين سمح للفرسان بمغادرة الجزيرة بسلام، إذ أن هذا التُّبَل سوف يكلفه - فيما بعد - ثمناً باهظاً! ويبحر فرسان القديس يوحنا إلى جزيرة رودس، ومعهم قائدهم «دوقالييه»، ثم يغادرونها بعد ثمان سنوات إلى وطن أكثر دواماً: مالطة. لكن «السلطان» لا يريد أن يتوقف التاريخ عند مجرد الهزيمة والانتصار. فهو يضيف موقفاً إنسانياً يعلو فوق الغلبة ونشوة الفوز، فيطلب أن يرى «دوقالييه» قبل رحيله عن الجزيرة، فيمتدح دفاعه الباسل، ويمنحه هدايا ثمينة. وبعد أن ينصرف، يقول لوزيره إبراهيم: «أليس من المؤسف حقاً أن نضطر إلى إرغام هذا المسيحي الشجاع على مغادرة وطنه وممتلكاته وهو في شيخوخته»^(١)!

الآن، يستطيع «سليمان» أن يستريح قليلاً. فهو آمن من ناحية الغرب، بعد أن استولى على معاقل التهديد بالجزر، في ساباكس وبلجراد. وهو أكثر أمناً واستقراراً من ناحية الشرق، بعد أن حوّل شرق البحر المتوسط إلى بحيرة تركية تطمئن في مياهها سفن الحجاج والتجارة في غدو ورواح. لكن وقت الراحة لا يطول!

موهاك:

موقع يثير الوجدان والأشجان. إنه مكان مجاور لنهر الدانوب. ينحدر

(١) هذا الاضطراب الاستراتيجي كما نقول اليوم) عبّر عنه المؤرخ البريطاني المشهور «بيرى J.B. Bury» فقال: «كان من مصلحة النظام العام حين ذاك أن تضم جزيرة رودس إلى الأتراك».

من ناحية الجنوب صوب السهول العشبية المجرية، قبل أن ينحرف في اتجاه الشرق ميمماً شَطْرَ البحر الأسود.

هنا.. في هذا الموقع، دارت معركة عنيفة، قُتل فيها ملك شاب ومعه كل نبلائه تقريباً، عندما واجهت الفروسية التقليدية آلات الحرب الحديثة، في أوائل سنة ٩٣٣ هـ (أغسطس ١٥٢٦م).

قالوا عنه: «سريعاً وُلد، وسريعاً تزوج، وسريعاً تملك، وسريعاً جدا مات»!

فقد وُلد لويس الثاني - ملك المجر - قبل اكتمال شهور الحمل، ثم أصبح ملكاً قبل أن يبلغ سن العاشرة، وبعد خمس سنوات تزوج شقيقة الإمبراطور شارل الخامس (ملك أسبانيا) والأرشيذوق فرديناند حاكم النمسا، وفي بلاطه، كان محاطاً بجماعة من النبلاء يغلب عليهم - مثله - التهور والحدة والخيلاء، فكانوا أقرب إلى البطش وسفك الدماء، منهم إلى الحنكة والحكمة واصطناع الدهاء، وبلغ من حماقتهم وجبروتهم أنهم كانوا أحياناً في الصيد، يتخذون أرقاءهم هدفاً إذا ما فشلوا في صيد الحيوان! فكان أمل هؤلاء التعساء، أن يخلصهم جيرانهم الأتراك من هذا الظلم المشين، وقد تحقّق هذا الأمل بفضل حماقة ملكهم الغرير، الذي سوّلت له نفسه أن يسىء استقبال رسول من قبل «سليمان» العظيم.. المهاب!

فما أن بلغ «سليمان» ما فعله ذاك الملك، حتى نهض على الفور

ممتشقاً حسامه، ومن ورائه جيشٌ عَرمٌ غاضبٌ، متحفز مشوق للحرب. لقد كان ينتظر تلك اللحظة - على مضض - نحو ثلاث سنين، منذ انتصاره في حرب رودس، وزاد من حماس الجيش، أن علماء الإسلام بالسلطنة أعلنوا أنها حرب مقدسة ترد الإهانة، وتؤدب المتطاولين على هيبة سلطان المسلمين^(١)!

وفى الطريق، يتلقى السلطان «سليمان» كتاباً من فرانسوا الأول - ملك فرنسا - ورسالة أخرى من شارل الخامس - إمبراطور أسبانيا - يطلبان منه الإسراع إلى تجدة ملك فرنسا - أ - بالمضى قدما إلى مقاتلة ملك المجر، وتحرير الأراضي والشعوب الخاضعة له (ومنها أهالي الصرب وكرواتيا والبوسنة والهرسك).

وعلى الجانب الآخر، يستشيط بابا روما «كليمنت السابع» غيظاً أو فرعاً، فيحث الحكومات المسيحية على الإسراع لموازنة الدولة المهددة، في حين ينصح «لوثر» الأمراء البروتستانت أن يلزموا أوطانهم لأنه «من الواضح بلا مرأى - هكذا قال - أن الأتراك وافدون من عند الله، ومن ثم، فإن مقاومتهم هي جحود وعصيان لله».

يخرج «سليمان» من استنبول، تحفّ به فرق «الچانيسارى» الشديدة البأس، لا ينتظر مقدم كتائب الفرسان من البلقان، فتلحق به على

(١) نفس هذا الموقف حدث من قبل مع الخليفة المجاهد الشجاع هارون الرشيد - ولنتأمل حال المسلمين - للأسف! أو للأسى - بين الأمس واليوم!

عجل، وتُبحر السفن مصعدةً في نهر الدانوب محملة بالمدفعية الثقيلة، وعندما يعبر حدود المجر، يكون جيشه قد بلغ ثمانين ألفاً من الرجال الأشداء الشجعان، يتبعهم آلاف من الإبل والدواب والعربات، تحمل المؤن والذخيرة، ومن البارود ما يكفي لتغذية ثلاثمائة من أقوى المدافع في ذلك العصر، وفريق من خيرة المهندسين يقيمون الجسور (الكبارى) فى لمح البصر، فلا يتوقف الجيش عن مواصلة المسير، ثم يسبقونه بمعداتهم نحو الحصون المجرية المقامة على امتداد الدانوب، فينبون المواقع التى ستحتذى بها مدافع الجيش الزاحف، عندما تطلق قذائفها الغاضبة فتدك الأسوار وتحطم القلاع.

يتقدم الجيش كالجراد المنتشر! فى طليعته: «الأكينسى» أو الخيالة الخفيفة والكشاف، وغالبيتهم من حملة الرماح، ومعهم الأدلاء يلبسون زياً من جلد الفهد وأغطية الرأس المجنحة، فيشير منظرهم الرعب فى النفوس، وهؤلاء، لا رواتب لهم أو أعطيات مثل بقية أفراد الجيش، وإنما يؤجرون من الغنائم والأسرى بعد المعركة، ومن مهامهم المنوطة بهم إلقاء الرعب فى قلوب سكان القرى والمدن التى يمرون بها، فيرى الناس على البعد سحائب الدخان وألسنة الحرائق التى يشعلونها فيفزعون ويفرون.

أما فرق الفرسان النظامية، فتسمى «سياهى»، أى الفرسان المنتظمون المحترفون، الذين لم ينالوا هذا الشرف - فى استرخاء - عن طريق

الميراث، وإنما اختارهم السلطان وأعدّهم للخدمة العسكرية. إنهم مهرة
فى استخدام عدة أدوات فى القتال العنيف: السلاسل، والسيوف،
والرماح، والخناجر، والدبابيس، والحراى.

وفى وسط الجيش، تمشى فرق «الجانيسارى» مسلحة بالبندق،
والسيوف، وترتدى الأقنعة المعدنية أو تحمل الدروع، وهم رجال أقوياء،
لهم شوارب كثة، يثير مرآهم الرعب من غير قتال!

وأين «سليمان»؟..!

فوق جواده العربى الأصيل، وهو الوحيد بين خيول الجيش كله ذو
اللون الأسود، مطّهم بالذهب يعلوه السلطان بعمامته البيضاء الناصعة،
فى ردائه المزين بالجواهر، تحيط به كوكبة من الحاشية وفرسان الحرس
السلطانى، يرفعون عالياً راية السلطان، تتدلى من ساريتها شارة «سليمان
المنتصر»، وهى مكونة من ذيول سبعة خيول قتل السلطان - من قبل -
من كان يركبها من ملوك أو أمراء أو قادة، إنها راية تعلق كل الرايات
والبنود (الأعلام) - وخلف السلطان - على مقربة - يدو إبراهيم -
الوزير الأكبر - على فرسه وهو فى سمت المقاتل الشجاع.

لعل أكثر الفرق إثارة فى هذا الموكب المهاب، فرقة «المهتر»، أو
الموسيقى العسكرية. تضم عدداً كبيراً من النقّارات (الطبل الكبير)
المدوية، والصنّج النحاسية الصاخبة الصوت، وآلات النفخ الحادة
النغمات، يشبه صوتها زئير المزمار الغاضب، وقد جاء فى وصف أحد

المعاصرين: «عند مرور تلك الفرقة الموسيقية، وآلاتها كلها تعزف معاً، فإن ضجيجها الضاغط المدوى يوشك أن يدفع بمخّ من يسمعها لينزلق من فمه!»

هذا التجديد الذى ابتدعه العثمانيون، بتكوين فرقة مشاة الموسيقى العسكرية، كان أداة فعالة من أدوات إثارة الرعب عند الهجوم، وإشاعة الفرع والرهبة عند استعراض الجيش فى المدن المفتوحة أو المستسلمة.

لم يكتف المراقبون إعجابهم المفرط بالنظام الدقيق والالتزام المطلق طوال مسيرة جيش السلطان: «لا يُروَّعن أحد من الجند رعايا السلطان خاصة المزارعين والفلاحين، ولا يتلفن لأحدهم محصولاً أو زرعاً، ولا يسرق دجاجاً أو خرافاً». وفى الحق، لم يحدث من ذلك المنهى عنه شىء قط!

طالت مسيرة «سليمان» بجيشه العظيم، وتعجب السلطان، إذ لم يعترض تقدمه جندى واحد من جيش الحجر بعد أن عبر نهر الساف! غير أن خطة المجريين كانت ترمى إلى اختيارهم سهل «موهاك» - أو موهاكس - مسرحاً للمعركة، حيث يتيح لفرسانهم - فى زعمهم - قدرة على التفوق والسيطرة.

وصل جيش «سليمان» إلى موهاك، بعد مسيرة ١٢٨ يوماً بعد أن قطع مسافة تبلغ نحو ٩٣٠ ميلاً، بمعدل سبعة أميال ونصف كل يوم، سواء كان الجو صحوً أو ممطراً، ولما كان المطر غزيراً، فقد تحولت أرض

«موهاك» إلى تربة إسفنجية مشبعة بالمياه.

وقطع الملك لويس بجيشه الملكي غير المنظم، المسافة من عاصمته
المجرية «بودا» إلى موهاك في ثمانية وثلاثين يوماً، بعد مسيرة شاقة طوال
مائة وخمسة أميال، في جيش مكوّن من عشرين ألفاً من مختلف
الجنود، ثم لحقت به فرق يقودها «چون زابوليا» ذو الشخصية
العسكرية الجذابة. غير أن النبلاء من الحاشية، وقد نهشتهم الثقة
المفرطة، تنازعوا فيما بينهم على مناصب القيادة، ولم يكن لديهم صبر
ولا روية، فتعجلوا الدخول في المعركة، ثم داخلهم الزهو وهم
يركضون بخيولهم المطهّمة، يضعون الدروع الذهبية البراقة، والقلانس
الزينة بالريش الناعم، فكانوا على يقين من أن شجاعتهم سوف تجعل
هذا اليوم يومهم بلا منازع، وإن كان جيشهم في العدد أقل من
الثلث.

في التاسع والعشرين من أغسطس..

في الثالثة عصرًا...

انطلق العثمانيون من داخل غابة كثيفة تواروا داخلها: جنود
الأناضول في الميمنة، وجنود «الروملّي» - البلقان - في الميسرة، وجنود
«الآكينسي» في المقدمة لحماية كلا الجناحين. في موقع متوسط إلى
الخلف، وقف سليمان يُصدر الأوامر من مركز القيادة.

اندفع الفرسان المجريون نحو الأرض المشبعة بالماء. فتراجعت قليلا فرق الأناضول والروملى (الميمنة والميسرة) متظاهرة بأنها فزعت من المباغتة. فمضى المجريون فى اندفاعهم المنتشى بالجيش كله، ثم فجأة، تبينوا أنهم وقعوا فى شرك مصيدة، إذ أطبق عليهم الجناحان العثمانيان !

فى هذه الأثناء، كان ثلاثون من الفرسان المجريين قد أقسموا أن يحزوا رأس السلطان أو يموتوا معاً مائة رجل واحد، فأتجهوا مسرعين نحوه، وأصاب أحد رماحهم درع السلطان، واستطاع ثلاثة منهم أن يتقربوا منه، إلا أنه عاجلهم فأجهز على ثلاثتهم بسيفه فى ملح البصر (وتلك شهادة المؤرخين الغربيين) فسقطوا ممزقين تحت أقدامه، وأصيب هو بجرح بسيط.

وسرعان ما تجمع جنود «الچانيسارى» وأحاطوا به فى كتل متراصة، وأخذوا يطلقون سيلاً من النيران والرماح فى دفعات متلاحقة، فرقة من وراء فرقة، هذه تطلق، والأخرى تعبىء سلاحها ثم تتبعها. وعندما صار الجيش المجرى كله محاصراً من كل جانب يتلقى الضربات العثمانية الفاتكة، عاد الجناحان العثمانيان مرة أخرى - بتعليمات القيادة - إلى الإنفراج قليلاً بعيداً عن جيش المجر. وفى الحال، انطلقت المدافع العثمانية تفتح نيرانها فى خط واحد باتجاه المجريين، مجموعة ناسفة من لقذائف إثر مجموعة، بنفس النظام والتوقيت السابقين، فلما توقفت حمم نيرانها ودويها المفزع، أسرع جناحا الأناضول والروملى نحو من

بقى من جيش المجريين المطحونين، يعملون فيهم السيوف حتى أجهزوا عليهم ومزقوهم شرمزق، والذين حاولوا الفرار بجلدهم، اعترضتهم فرق المؤخرة.

الساعة الخامسة:

بعد ساعتين اثنتين فقط.. كان كل شيء قد انتهى، وحسنت المعركة!

فى صباح اليوم التالى، عُثر على جسد الملك لويس: لما حاول الفرار، انزلق فرسه من فوق حافة منحدر، فتدحرج به نحو مجرى مائى غير عميق، وقد تعرفوا عليه من درعه الذهبى الثقيل، لأن وجهه كان مطموراً فى الطين! وعندما أُبلغ «سليمان» بمصير الملك قال: «فليرحمه الله! وليُنزل غضبه على أولئك الذين أساءوا توجيهه واستغلوا بخبث نقص كفاءته وخبرته. لا شك فى أننى جئت مضطراً لمقاتلته بالسلاح، لكننى ما كنت أرغب أن يمزق على هذا النحو، وهو لم يكذب يندوق حلاوة الحياة وطعم الملك».

أفاقت أوروبا على دوى الصدى القادم إليها من «موهاك»، وحسبته غضب الله عليها وسخطه. فها هى المجر قد ولت، ولسوف تتبعها على الأرجح النمسا، ثم ألمانيا. وتنبه مارتن لوثر، الذى تثبت جذور دعوته من قبل بفضل زعزعة الأتراك لكيان الدولة الرومانية. فكثيراً ما كان يقول: «إن محاربة الأتراك عصيان لإرادة الله، لأنه يعاقبنا

على ما اقترفنا من آثام». الآن، وبعد «موهاك» يدعو - لوثر نفسه - إلى الحرب المقدسة ويستحث كل أمير في أوروبا أن يسرع ليكون ظهيراً للإمبراطور - الأسباني - في دفاعه عن مملكة المسيح^(١)!

فِينَا (عاصمة النمسا) :

اسم متعدد الأبعاد والآفاق في التاريخ، والفن، والأدب، والفروسية، والحضارة الإنسانية. إذا أُتيح لك أن تصعد إلى قمة برج كاتدرائية «سان ستيفن» وتنظر من ارتفاع أربعمئة وخمسين قدماً، فسوف ترقب حركة ساكنى المدينة العريقة من هذا الارتفاع الشاهق، فإذا اتجهت ببصرك نحو شارع «رينج شتراسى» الذى يخرق الأحياء الداخلية القديمة، فتذكر حينئذ أن أسطح البيوت فى هذا الموقع كانت فى يوم ما من عام ٩٣٦ هـ (١٥٢٩ م) بَحراً أبيض اللون مكوناً من خيام الأتراك المنتشرة حول أسوار فيينا آن ذاك، فإذا ما نزلت وتجولت فى هذا الشارع وعبرت المتاجر العتيقة وما يجاورها من مطاعم شهيرة مثل «كيلير» و «رفينستوين» والمقاهى.. طالعتك نفحات - أو زفرات - التاريخ، وترجع أصداء حفيف الرايات والأعلام التركية ذات الهلال الكبير.

(١) يقب «بروكلمان» على «موهاك» بقوله: كانت موهاك هزيمة أدبية ومادية معاً للعالم المسيحى. وابتهج اللوثريون (البروتستانت) بفوز الأتراك، ونهب جيش الإمبراطور شارل مدينة روما.

كان هدف الأتراك اقتحام «البوابة الكرثية» وهي الآن فى نهاية الشارع، ونجحوا بالفعل فى إحداث ثغرة بها بعد هجوم متلاحق، لكنهم لم يتمكنوا قط من دخول المدينة. وفى موقع هذه الثغرة تقف اليوم دار الأوبرا بالمدينة، وكأنما قُدِّرَ لهذا المكان أن يظل عمره كله يشهد التدافع والزحام! فجمهور الأوبرا المتضاغط يجد مشقة على الدوام فى الحصول على تذاكر الحفلات المحدودة العدد!

كان العدو اللدود للسلطان سليمان: الطقس، فالأمطار الغزيرة المتواصلة كلَّفته ١٤١ يوماً للوصول إلى عتبات فيينا. واضطر فى مسيرته الشاقة، أن يخلف وراءه العديد من البنادق والأسلحة ملقاه فى الوحل، لقد أحكم الحصار حول المدينة، لكنه أدرك أن جيشه فقد كثيراً من معداته، وأن الجنود داخلهم الوهن، وبعد أقل من ثلاثة أسابيع ينسحب جيش الأتراك تحت وطأة الثلوج المتراكمة. ثم ضاعف من خطر الموقف، اقتراب الشتاء القاسى وهلاك مئات الفرسان والخيول والإبل.

ابتعد شبح الغزو العثمانى التركى عن فيينا، لكنه لم ينقشع تماماً. إذ يعود «سليمان» بعد ثلاث سنوات محاولاً اقتحام المدينة بجيش أكبر وعتاد أوفر، لكن وصوله إلى فيينا تأخر عن مواعده المقدر، حيث اضطر وهو فى الطريق إليها أن يقضى معظم شهر أغسطس فى حصار لقلعة «جونس» القريبة من الحدود المجرية النمساوية.

مرة أخرى يتأخر التوقيت، ويقترب موسم الشتاء المؤلم المعوق، إلا أن «سليمان» - وقد خرج فى تلك الغزوة متحدياً الإمبراطور شارل ملك أسبانيا، فكر فى إغرائه بالخروج من مدينة «ريچينسبرج» فى بافاريا، فيلتقى الجيشان.

لكن شارل - كما يخبرنا سفيره «أوجيير» - كان «قد اكتسب مع الأيام من دروس الحكمة ما جعله يوافق على رأى أخيه «فرديناند» بعدم المخاطرة والسعى إلى التهلكة لمجرد إرضاء غرور النفس، فما زالت معالم الدمار التى خلفتها جيوش العثمانيين فى فارنا وفى نكوبوليس قائمة محدّرة، وما زالت سهول موهاك تتشع بالبياض من تكدس جماجم وعظام الذين ذبحوا وقتلوا على أرضها تفتيلاً». أما «بروكلمان» فيؤكد: «لم يحظ سليمان بفريسته حيث جبن شارل وبقي محتمياً خلف أسوار المدينة المحصنة تحصيناً هائلاً، ورفض أن يخرج للقتال فى أرض مكشوفة، وانصرف «السلطان»، لسبب وحيد: البرد والجليد، ودمر فى طريقه جزءاً كبيراً من النمسا، وحمل الغنائم، وقد بلغه أنه الأسطول التركى اشتبك فى الجنوب مع أسطول «أندريا دوريا» عند شاطئى «البلوبينير».

ولما أرسل فرديناند مبعوثاً يطلب الصلح، رحب به «سليمان»، وأبلغه أنه يعقد الصلح إلى الأبد إذا لم ينقضه فرديناند نفسه، وأنه سوف يعامل فرديناند كابن له، لكنه طلب ثمناً فادحاً، وهو أنه ينبغى على فرديناند أن يرسل له مفاتيح مدينة «جراو» رمزاً للخضوع والولاء، وكان فرديناند وشارل متلهفين على تحرير أسلحتهما وتوجيهها ضد المسيحيين

(المنشقين)، إلى حد أنهما كانا على استعداد لتقديم بعض التنازلات للأتراك. فأرسل فرديناند مفاتيح المدينة، وأطلق على نفسه «ابن سليمان»، واعترف بسيادة «السلطان» على معظم أراضي المجر في يونيو عام ١٥٣٥ م (سنة ٩٤٢ هـ) واسترد السلطان مدن الجنوب المغتصبة، وراوده حلم بسط سلطانه على «فيينا» و «تبريز» ..

لقد كان «السلطان» - سليمان - أحكم رأياً وأبعد نظراً من الإمبراطور نابليون بوناپرت الذى أباد الصقيع معظم جيشه عند أسوار موسكو - فيما بعد - بدون أن يكسب شيئاً، ولم يأخذ الدرس من سلطان المسلمين.

فى أطلال قلعة قديمة بمدينة «ريجنسبرج» ما زال هناك حجر مستدير، مثير للمشاعر، منقوش عليه كلمات تثير ابتهاج كوامن الأسى فى النفس من عهد شارلمان، هذه الكلمات هى: «غزا الأتراك هذا المكان أعوام ١٤٨٠، ١٥٢٩، ١٥٣٢»!

وجاء فى مذكرات السفير «أوجيير»: «انقضت جيوش السلطان مثل الرعد القاصف، تضرب، وتحطم، وتدمر كل شىء تصادفه فى طريقها، ولم يوقفها إلا جيوش الفرس التى هجمت من الشرق لنجدتنا^(١) فأسرع الأتراك بالعودة لمواجهة الخطر الذى جاء يتهدهدهم».

(١) يفسر «ديورانت» فى موسوعته «قصة الحضارة»: كتب السفير لفرديناند فى القسطنطينية يقول: «إن فارس هى التى تقف حائلاً بيننا وبين الدمار» وقدمت الرشوة بسخاء إلى القواد الفرس.

ونمضى سراعاً مع «سليمان» متجاوزين - اضطراراً حتى لا يمل القارىء - كثيراً من الوقائع والأحداث، من أبرزها فتوحات وانتصارات قائده البحرى للأسطول العثمانى فى البحر المتوسط: «خير الدين برباروسا» - أى ذى اللحية الحمراء - الذى أمّن طرق الحجاج وتجارة المسلمين من شمال أفريقيا إلى الشرق، والذى هزم أسطول الأسبان فى الجزائر وأجبر جنوده وبحارته «الأسبان» على بناء ميناء الجزائر طوعاً أو كرهاً! وأنقذ بسفنه العثمانية عشرات الآلاف من مسلمى أسبانيا الذين فروا أو طردهم التعصب الأعمى ومحاكم التفتيش من ديارهم واستلب أموالهم واغتصب نساءهم، وهو برباروسا الشجاع الفذ الذى استولى على مدينة نيس وفيلفرانش الفرنسيتين الشهيرتين، والذى طلب - فأجيب - أن «تكف أجراس الكنيسة عن الدق طالما كانت سفن الله (أى سفن أسطوله) فى الموانئ الفرنسية، لأن أصواتها تقض مضجعه! ثم هو الذى أطلق الغربيون عليه اسم: سيد البحار، بعد أن ارتعدت العاصمة الإيطالية روما فرقاً حين أغار على كالابريا ونزل فى أوستيا ثغر العاصمة، وفرض صلحاً على البندقية (فينيسيا) وأخذ ممتلكاتها فى بحر إيجه واليونان، واستولى على صقلية، وضم تونس إلى الدولة العثمانية، وبلغ من الرعب الذى أنزله فى نفوس الأوروبيين، أن الأمهات فى ذلك الوقت - الأوروبيات - كنّ يخفن صغارهن إذا أضجرنهن أو عصبنهن، فتقول إحداهما لطفلهما: «إذا لم تتأدب، فسوف أخبر عنك بارباروسا»!

كما نتجاوز - مسرعين - معارك «سليمان» مع الشاه الفارسى

طاهماسب (ابن الشاه إسماعيل الصفوى) التى استمرت لسنوات طويلة، وانتهت إلى اتفاق هدنة سلام، توقف - إلى حين - صراعهما الدموى...

بعد حروبه المتواصلة، لم يعد طاهماسب (أو الشاه العبوس كما أطلق عليه، والضعيف الإيمان، كما وصفوه، وأيضاً: سودادى المزاج، جباناً، مترفاً، منغمساً فى الملذات، خشناً...) لم يعد يستلذ القتال والحرب، خاصة بعد أن فقد بعض المناطق والمدن الهامة. فيقرر أنه لن يدخل مع «السلطان» فى حرب جديدة، وسوف يسلم إليه ابنه بايزيد (ابن سليمان) الذى التجأ إليه راجياً الحماية من أبيه والعون على قتال أخيه (سليم) فى صراعهما على وراثة العرش. كانت أوامر «سليمان» صارمة لا تعرف الاستثناء، حتى مع الأبناء. وبالفعل قُتل بايزيد! عام ٩٧٣ هـ (١٥٦٥ م) ..

كان «جان باريوست لافاليت» بطل مالطة، واحداً من الذين واجهوا حصار «سليمان» منذ ثلاثة وأربعين عاماً فى جزيرة رودس. وهو هنا يحكم تحصين الجزيرة، فاحتملت أسواره خمسة وثمانين ألف قذيفة، ما زالت آثارها باقية حتى اليوم. فى البدء، فى القرن الرابع الهجرى (الحادى عشر الميلادى) كان ظهور هؤلاء الفرسان بيت المقدس (القدس) بهدف تقديم العون والرعاية للحجاج المسيحيين، وعرفوا باسم: «فرسان القديس يوحنا (سان جون) المضيافين». ثم تحولوا - مع

الأيام - من تقديم الخدمات الطبية إلى مزاوله الأعمال الحربية، وأصبح أسطولهم فى رودس يؤرق سفن الدولة العثمانية.

فى دار الوثائق بمالطة، يحتفظ الآن بوثيقة الإمبراطور شارل الخامس - ملك أسبانيا - التى يضع فيها جزيرة مالطة وطرابلس على الساحل الليبى تحت تصرف هؤلاء الفرسان - بعد إجلالهم عن رودس - لفترة ثمانية أعوام، وعليهم أن يراقبوا ويعوقوا تحركات الأسطول العثمانى فى غرب البحر المتوسط، مقابل جعل سنوى يدفعه لهم.

لكن طرابلس تنتقل - بفضل ما جرى على أيدي برباروسا - إلى حوزة الأتراك العثمانيين، وبقيت مالطة تفسد خطط الأسطول العثمانى، وتقطع طريقه، وتواصل عليه هجماتها المتكررة الشرسة. وفى كل يوم، يزداد «لافايت» سيد مالطة ومن معه، رسوخاً ومراساً وزهواً، وإن تجاوز هو سن السبعين. الآن تقف التكنولوجيا الحربية الإيطالية الجديدة فى مواجهة الاستراتيجية الإسلامية العتيدة.

كان حصار مالطة إذن حرباً مقدسة، يتيح استخدام كل الوسائل، وقدّر الأتراك خمسة أيام فقط للاستيلاء على قلعة «سانت آلمو» الرابضة بالميناء، لكنها صمدت نحو شهر، قبل أن تتحول إلى كومة هائلة من الأنقاض، وتبادل الجانبان كل ما يتصور من بشاعة القتل والذبح والحرق والتشويه والتدمير، وقرب نهاية الصيف، أفلح العثمانيون فى تدمير القلعتين المحصنتين الأخريين وتقاتل الرجال بكل مخزون الحقد

والعنف على الأرض، وفي البحر، وتحت الماء، وفوق السفن وحولها،
بأساليب تفوق خيال «جيمس بوند» السينمائي المعاصرا

مات آلاف المحاصرين بسبب الحرارة الشديدة. وتعفنت جثثهم تحت
حطام الأسوار المتداعية. ثم حدث ما يشبه الأسطورة أو المعجزة، فقد
انسحب فجأة الأسطول العثماني المتفوق، استجابة لنداء خاطيء! كان
في مقدور رجاله بكل يسر أن يدوسوا بأقدامهم من بقى حيًا من
جنود الفرسان، إذ كان عددهم لا يزيد على ستمائة!

الآن، أصبح «سليمان» شيخاً عجوزاً تنتابه العلل، فقد بلغ سن
الثانية والسبعين، وقلّ من الملوك في عصره من أدرك هذه السن، إنه
أكثر صلاحاً وتقى، لكنه أكثر عبوساً وقنامة، يأكل طعامه في صحاف
من فخار رخيص، بدلا من الأطباق الفضية، ويأمر بتحطيم كل الآلات
الموسيقية في قصره، ويضع على وجهه مساحيق وردية اللون حتى يوهم
الآخرين باعتدال صحته، فلا تهتز مكانة السلطة المركزية في النفوس،
بجميع أرجاء الإمبراطورية.

تزداد هموم «السلطان» يوماً بعد يوم، ويبلغ الأمر مداه عندما جرّؤ
إمبراطور هابسبورج (المجر) فأعلن أنه لن يدفع الجزية التي افترضها عليه
«سليمان»، وتمادى بأن هجم على بعض المدن القريبة من الحدود
التركية المجرية داخل البوسنة والصرب. فاستاءت «محرمة» ابنة
«روكسلانا» زوجة «السلطان». وأفصحت عن أحزانها لأن أباه

السلطان تقاعس طويلاً عن الخروج فى حرب مقدسة تدفع السوء عن البلاد، وترد المارقين إلى الصواب، وتصون أعراض المسلمين وأموالهم.

أما «سليمان» نفسه، فقد كان يشغله التفكير فى إنجاز أمور ثلاثة قبل أن يفارق الدنيا: إتمام بناء مسجده، وإصلاح القناطر وشبكة المياه العتيقة التى تمد استانبول، وفتح فيينا ومنها يؤدب الحجر. لقد فرغ من تحقيق الأمرين الأولين. وأصبح لزاماً عليه أن ينجز الثالث!

هنا، نتوقف قليلاً لنسأل: أى نوع من الرجال كان «سليمان» ؟

إن الذين جاءوا من بعد، ما زالوا يشاركون معاصريه الإعجاب به، حين فهموه حق فهمه، وخضعوا لمهابته، وأدهشهم قوة إرادته وتنظيمه، ومتابعتهم لغزواته ومعاركه المتلاحقة، تتوجها انتصاراته المتعاقبة.

ومن وراء الأزمات والعصور نكاد نراه بين رجاله يرتدى زيه الأبيض، وكما قالوا: «كأنه منارة وضياء»، أو نشاهده وهو يترأس حفلاً أقيم بمناسبة اختتان أبنائه، وهو ينثر الذهب على رعوس الحاضرين، أو نلمحه وهو جالس مبتهجاً يعرض عليه خمسمائة من رجال حاشيته، كل منهم فى زى براق مختلف، فإذا لم يكن فى سفرة للجهاد والغزو، أو فى رحلة للفروسية والصيد، فإن «سليمان» كان يفضل أن يقبع فى قصر «طوبقاي». وعلى العكس من قصر لويس الرابع عشر ملك فرنسا (قصر فرساي)، فإن قصور سلاطين آل عثمان كانت

«إنسانية» الطابع، «بشرية» المساحة والحجم. أما المباني الفاخرة الضخمة المبهرة، فكانت قاصرة على بيوت الله، ترفع وتزين من أجله.

أظهر «سليمان» كثيراً من الحكمة كقانوني مشرع، ليس فقط من زاوية التجديد والابتكار، ولكن أيضاً من حيث التنظيم والحفاظ على التوازن.

كان مؤمناً تقياً، يستشير الفقهاء قبل اتخاذ القرارات الحاسمة والخطيرة، كما كان أميناً صادقاً، فقد رد إلى مصر ما زاد من قيمة الخراج الذي افترضه عليها، لئلا يعتاد الولاة على ذلك فيرهقون الرعية. كان عادلاً منصفاً، فلا يسمح بأى انحراف أو حيف، وإلا فالعقاب شديد، حتى مع أبنائه، لكنه أحياناً كان يصرف الأمور قبل أن يتجمع لديه كل الحقائق، فيصفه البعض حينئذ بالاستبداد والبطش.

وصفه سفير آل هابسبورج لدى الباب العالي فقال: «كان له دائماً طابع الرجل الحذر اليقظ المعتدل». وحتى في بواكير أيامه، حين كانت قواعد الحكم في تركيا تجيز الصفح عن الخطايا، لم يكن في حياته ما يعاب عليه، لأنه لم يعاقر الخمر لا في شبابه ولا طوال حياته، ولم يستطع أولئك الذين جنحوا إلى تشويه أعماله وتصرفاته أن يدسوا ضده شيئاً أسوأ من إفراطه في حب زوجته، ومن الحقائق المعروفة عنه، أنه كان مخلصاً كل الإخلاص لمن أحب.

كان يحكم كل شيء، وكل فرد. وفي الحياة اليومية، كان مفرط الذكاء والعطاء، سواء بالذهب أو بالفضة، وفي نهاية اليوم، كان يقتسم مع حاشيته وأتباعه ما يتبقى، ففي كل صباح، يأتيه من أرجاء إمبراطوريته مزيد وفير. ثم كان هو نفسه فناناً حاذقاً مثلما كان سيداً كريماً.

وفوق ذلك كله كان هو البطل المنتصر. إنه السلطان الغازي الذي تحالف معه النصر، وكأنه معقود بركابه، وكيف لا وهو يقود بنفسه الجيوش ويتقدم الجند في المعارك؟!..... ورغم الحروب المتواصلة والتي لم تكد تهدأ، فإن الإمبراطورية العثمانية جلبت إلى شعوبها المتنوعة ثمار السلم، ففي ظل تلك الإمبراطورية الفسيحة الأرجاء والأبعاد، تزايدت رقعة الأراضي وأعداد الشعوب فوقها، وامتدت شبكات الطرق ومحطات القوافل، واثتعت التجارة، وازدهرت الصناعات والحرف، وجعلت الخدمات الاجتماعية من هذه الدولة - بشهادة الشرق والغرب معاً - أفضل نموذج في عصرها، وأعطت فلاحى البلقان والبوسنة والصرب، أماناً جديداً متميزاً، وهم قابعون في ديارهم، مطمئنون على أرضهم وأموالهم.

وراح القادة الأوروبيون المبهورون يتلمسون السر وراء هذا النجاح. وتساءلوا: هل يتمكن حقاً صبي أحد الرعاة من أن يصبح يوماً وزيراً أو كبير الوزراء؟!.. ولما ورد تقرير سفير البندقية لدى الدولة العثمانية، وفيه

يصف أحوال المجتمع الذى تظله راية السلطان، صاح أحد الشيوخ فى مجلس البندقية مستنكراً هذا الزعم، إذ كيف يتسنى فى مجتمع العبيد أن يصبح العبد من السادة ١٩

إنه لم يدرك أن أعلى مناصب الدولة كان من المتاح أن يشغله من ولدوا فى الحضيض، فهكذا تتوزع «طاقة» الإسلام، وهو أمر قد لا يصدق! وفى الحق، أن أعظم وزراء «سليمان» الثمانية، جاءوا من بيئات متواضعة، وكثير غيرهم من أشجع وأقوى الفرسان فى عصرهم، أما الفقهاء والعلماء والقضاة والمشرعون، فقد كانوا من الأبناء الذين نذرهم أهلهم لحفظ القرآن ودراسة علوم الدين والسنة والشريعة، وعلوم الكون وعلوم الحياة.

كان العالم قد تغير كثيراً منذ غزوة «سليمان» الأولى للدانوب، التى انقضت عليها الآن نحو خمسة وأربعين عاماً، رحل عن الدنيا فرانسيس الأول (ملك فرنسا) وهنرى الثامن (ملك إنجلترا) فى عام واحد: ١٥٤٧ م (٩٥٤ هـ)، أى فى العام التالى لوفاة لوثر، وبرباروسا. وانسحب شارل الخامس (ملك أسبانيا) من مسرح الحياة والأحداث بعد أن مج الحروب ضد فرنسا، وضد البروتوستانتيين الألمان وضد العثمانيين، فعهد بسلطاته الإمبراطورية الخارجية إلى شقيقه فرديناند الجالس على عرش فيينا، أما فى داخل أسبانيا، فقد سلم العرش لولده العبوس فيليب الثانى، واعتكف هو فى قصر متواضع، يجاور دير

«يوسته» الأسباني - إن الملك الذي طالما تحدث بالإيطالية مع النساء، وبالفرنسية مع الرجال، وبالألمانية مع جواده، يتكلم الآن بالأسبانية مع ربه، مجهزاً نفسه «للموت الطيب» الذي أدركه عام ١٥٥٨ م (٩٦٦ هـ).

تغيرت أيضاً سياسات واستراتيجيات الدول، فمن الآن، يصبح البحر المتوسط العثماني بين فكيّ طامعينٍ نهمين: روسيا التي تتحرق غيظاً تريد التوسع والوصول إلى المياه الدافئة، وأوروبا الاستعمارية التي تمد في نطاق مستعمراتها الثرية الوفيرة الخيرات في آسيا، وتبغى تأمين الطرق منها وإليها. وانعكاسات هذين المتنافسين على ابتلاع مناطق من حوزة الإمبراطورية الإسلامية، ومنها مناطق وسط أوروبا (وفيها الصرب والكروات والبوسنيين).

وتغيرت مفاهيم الاقتصاد وأساليبه، كما تغيرت أيضاً تكنولوجيا الحرب في أوروبا وأدواتها، فتجاوزت بمراحل كثيرة مدفعية العثمانيين - سلاحهم الرئيسي - العتيقة. فانعكس ذلك كله على كل شيء، حتى على ألحان «موتسارت» في «الانسحاب من سيراغليو» وألحان «بيتهوفن» في «المارش التركي» حيث نسمع نغماً لطيفاً شجيّاً يطرب الأسماع ولا يستجلب الرهبة أو يستثير الرعب!

إن الرغبة الجديدة المتزايدة نحو اكتساب الكثير والأكثر من الأراضي والبقاء، جعلت الدول الكبرى ذات أهداف التوسع أسرع مرونة، وأشد

دهاء، وأحرص على تجميع الثروات ومخزون القوة. فى حين ظل «سليمان» وحده قابلاً فى إطار نظامه المتجمد الذى أصيب بتصلب الشرايين، فلم تعد له نفس القدرة السابقة على سرعة التكيف وإعادة البناء.

بدأ انحدار نظام الدولة - العثمانية - من مستوى المثل الأعلى والنموذج الإدارى لكل الدول، إلى مرحلة نمو بذور الفساد، والرشوة، وبيع المناصب، وتقريب الأقل كفاءة، ثم.. القهراً وقاوم المحافظون التقليديون برعونة وقسوة كل الأفكار الجديدة التى كانت تبغى إنعاش التجارة والصناعة وازدهار المجتمعات والشعوب التى تحتويها الدولة. وتجمع الجيران - المحيطون بهذه الدولة - وفى دمائهم وأدمغتهم تجرى وتغلى تيارات القرن الجديد وطموحاته، وهم يرقبون هذا النجم الثاقب وهو يميل نحو الغروب، وسوف يطلقون عليه فى القرن التاسع عشر اسم «رجل أوروبا المريض».

غير أن شفق الغروب بالنسبة للإمبراطوريات الكبرى يستغرق دهوراً طويلاً حتى يأتى عليه ظلام الليل. ومع الإمبراطورية العثمانية، استغرق ذلك نحو ثلاثة قرون، وهو زمن قياسى، ظلت فيه ولايات الإمبراطورية متشبثة بمظلة الدولة العالمية، محتفظة شعوبها بلغاتها، ودياناتها، وثقافاتنا، وجذوة مشاعرها القومية (ومثال واضح على ذلك تلك المنطقة من العالم التى نحن بصدها أى الصرب وكرواتيا والبوسنة وما

حولها). من هنا، كان البون شاسعاً بين الصيغة العثمانية، والتجربة الأسبانية حين أعلنت إمبراطوريتها النصرانية الاسترداد والتطهير، فلم يسمع في أرجائها على الفور، لا صوت المؤذن، ولا اللسان العربي، والتاريخ اليوم يعيد نفسه!

لكن نجم «سليمان» لم يَغرُب بعد، فهو ما زال قائد جيوش الجهاد المقدس، وقد عزم على الخروج في أول مايو ١٥٦٦ م (٩٧٤ هـ) مستهدفاً الدانوب (فيينا). إلا أن المسيرة هذه المرة تختلف، فهي بطيئة، وعلى نحو مزعج، فلم يعد «السلطان العظيم المهاب» قادراً على اعتلاء فرسه، بل هو يمضى مع جيشه الزاحف محمولاً في عربة، والمهندسون يستبقون ركبه ليمهدوا له سطح الطريق، فلا يهتز في جلسته، طوال تسعة وأربعين يوماً، حتى بلغ بلجراد (عاصمة يوغوسلافيا فيما بعد) تحت وابل من المطر الغزير، فتنهار جسور، وتفيض أنهار تغرق مياهها الطرق.

ثم تأتي الأنباء بأن أحد كُونتات المجر ذبح والياً من ولاية «سليمان» وأعلن العصيان في «تزيچتفار» بالقرب من «موهاك». وفي غمرة الغضب، يأمر «سليمان» بأن يتحول الجيش كله لتدمير حصن تلك المدينة، وبرغم أن جنود الحصن لم يزد عددهم على ألفين وخمسمائة فإنهم صمدوا في الدفاع طوال شهر كامل، تخللته هجمات على الجيش الذى يحاصره، وقتلوا منه المئات. وفي نهاية المطاف، استطاع

الكونت المجرى أن يتسلل مع من بقى حيًا من جنوده، وهو يرتدى زيه العسكري الأبيض، ممتشقاً سيفه المحلى بالذهب والجواهر، وأبحر فى مركب كان ينتظره، ولكن أدركه بعد برهة المترصدون، وكيف ينجو من هلاك محقق مائة وخمسون هارباً كان يحاصريهم نحو مائة ألف؟ وسقط الحصن بالتأكيد!

لكن «سليمان» لم يسمع بما حدث، ولم يُخبره أحد! ففى نفس تلك الليلة، مات «سليمان» فى سرادقه المضروب فى مؤخرة الجيش!

مات «السلطان». وأخفى العدد القليل من الحاشية الذى علم بذلك، أخفى نبأ موته حتى لا تنهار الروح المعنوية للجنود، ولن يعرف أحد عن موته شيئاً على الإطلاق، حتى يجلس ابنه «سليم» الثانى على العرش، وهو الآن على بعد ثمانمائة أو أكثر من الأميال فى «كوتاهية». واستمرت الأوامر والقرارات تصدر من سرادق السلطان، كما لو كان حيًا، ومن بينها المنح والأعطيات والمناصب، ورسائل إلى الملوك تخبرهم نبأ النصر والاستيلاء على الحصن، ورسالة إلى إمبراطور النمسا ومعها رأس «الكونت» القتيل.

ثم صدر الأمر بالرحيل وعودة الجيش. وفى العربة السلطانية، أجلس «سليمان» خلف ستائر كثيفة مسدلة، فى رحلة العودة الطويلة إلى العاصمة، وبعد ثلاثة أسابيع وردت إلى الجيش المتراجع أخبار عن اعتلاء الغلام «سليم» العرش وإعلانه عن وفاة أبيه، هنا فقط، أذاع «محمد سوقوللو» على القادة والجند خبر وفاة «سليمان».

خيم الصمت المطبق على الجيش، فقد صدمه النبأ، ونفس الشيء حدث في استانبول، إذ خرجت حشود الجماهير تزحف في صمت حزين نحو مسجد السلিমانيّة. لقد كان «سليمان» أجلاً وأعظم من مجرد سلطان حاكم، إنه جزء حيوى من حياة كل هذه الأجيال، وقد ظل يوجهها ويقود مسيرتها طوال عمرها، ورفع إمبراطوريته المقدسة إلى الذروة، وصاغ باقتدار عصرها الذهبى، وجعل منها «أكبر دولة فى أوروبا وأفريقيا، إن لم يكن فى العالم كله». هكذا قال مؤرخ غربى ثقة.

وطبقاً للتقاليد العثمانية المتوارثة، كان الأمر يقضى باستخراج قلبه من جسده، ودفنه - أى القلب - فى ذات المكان الذى توفى فيه.

فى غفلة من التاريخ.. ومن الناس.. هناك غير بعيد من «تزيجتفار» - بالمجر - لوحة قديمة عند حافة طريق مغمور بين الحقول مكتوب عليها «زليمان». وعلى مقربة، ترتفع بين الحقول أطلال بناية من الواضح أنها من عصر غابر. يظن أهالى المنطقة أنها بقايا كنيسة قديمة، إذ يعلو بوابتها الأمامية صليب كبير. فى الداخل، حيث تتسلل أشعة الشمس عند الغروب يظهر على الحائط نقش كتابة باللغة التركية بجوار هلال محفور فى الحجر، وكذلك اسم مدينة «كوتاهيا»، ثم هذه الكلمات: «دفن هنا قلب السلطان سليمان»!

قديماً قال شاعر تركى:

«قبل يوم الحساب.. لابد من يوم المعرفة»!

(٥)

آخر عمالقة القرن العسكريين

فى عام ١٩٤١، والحرب العالمية الثانية المتأججة تفور وتمور، سأل «ونستون تشرشل» أحد مساعديه: «هل يوجد شخص يدعى تيتو؟ أم أنه اسم امرأة؟ ربما يكون مفتاح شفرة سرية!!»

ثم انقضت الحرب، وتغير الكثير من خرائط الدول مثلما تغيرت أنظمة للحكم، وتحولت مسارات أمم وشعوب، وقبل رحيل «تشرشل» عن الدنيا الفانية، كان نجم «جوزيب بروز - تيتو» قد علا لامعاً متألقاً فى سماء التاريخ، وفى حياة الناس. فلما توارى بدوره حيث يتوارى كل الأحياء عند انتهاء العمر المقدور، وصفه كتاب الحوليات ومؤرخو الوقائع بأنه: «ظل - تيتو - لعدة سنوات، أحد العمالقة الذين صنعوا تاريخ هذا القرن، وآخر القادة العسكريين الكبار، الذين صارعوا - بضراوة - الهتلرية، فصرعوها ببسالة وفخار».

لكن «تيتو»، الابن السابع من الأبناء الخمسة عشر للفلاح البائس «فرانچو بروز» وزوجته «ماريا چافرسك»، تفوق على عمالقة عصره بأمر لم يحززه سواه، خاصة أولئك القادة من العسكريين والزعماء السياسيين فى شرق أوروبا، فهو الوحيد الذى ناطح - بإصرار وعناد - «جوزيف ستالين» ورفض الانصياع لسياسته والانضمام لمجموعة الدول التى تدور فى فلكه، وظل قرابة نصف قرن، يمسك بثبات وقوة وحزم، زمام إرادته ومصيرا أمته، فقدم المثال الحى، على أن الشجاعة والتصميم العنيد، يدعمان شخصية الدولة، ويحفظانها من التراخى، والتهافت، والذبول.

هل هى ضربة حظ، أم ضربة «معلم» ؟!

فالأسرة تقف عند مستوى الفقر، وفيما يشبه المعجزة، يلتحق الطفل «چوزيب» بالمدرسة المتداعية بالقرية، والتى بها مدرس واحد - مصاب بالسل - لثلاثمائة وخمسين تلميذاً. لكن الغلام ينمو، وتنمو فى داخله شعلة متقدة من أتون المشاعر الدفينة فى قلوب شعبه الكرواتي الصغير، أحد شعوب البلقان. وفى سن الشباب، تفخر الأسرة والأهل بأن الفلاح الفتى أصبح عاملاً بمصنع للحديد والصلب، وفارساً يجيد ترويض الخيول البرية، ثم ميكانيكياً على مستوى عالٍ من المهارة، وهو لم يبلغ بعد سن العشرين، أى فى عام ١٩١٢.

وسرعان ما ينجر فى تيار السياسة وأحزابها وصراعاتها الدامية،

فيلقى القبض عليه، ويساق - أثناء الحرب العالمية الأولى - إلى غياهب أحد السجون في روسيا وفيه كما قال فيما بعد: «تعلمت المبادئ الأولى للشيوعية»، ثم ينضم هناك إلى جماعات البلاشفة، ويشترك معهم في الحرب الأهلية (حتى عام ١٩٢٣) ويعترف قائلاً: «أصبحت جندياً في الحرس الأحمر، ثم عميلاً للمخابرات الروسية الدولية». يعود إلى موطنه - كرواتيا - يقود حزباً شيوعياً غير معترف به قانوناً، فيزج به في السجن (من عام ١٩٢٨ إلى ١٩٣٤). ويخرج منه منفياً إلى موسكو، ومنها إلى باريس فيسكن حجرة بالحى اللاتينية، فلما نشبت الحرب العالمية الثانية، واحتل الألمان يوغوسلافيا قاد حركة المقاومة ابتداء من يونيو ١٩٤١، وكان من الحكمة وبعد النظر بحيث جمع كل العناصر ذات الاتجاهات والميول المختلفة - والمتضاربة أحياناً - في تحرك واحد ضد العدو المحتل.

أصبح اسم «تيتو» يمثل روح الشعوب اليوغوسلافية، وتعبيراً عن إرادتها الفولاذية في مقاومة الغزو النازي، وهو في نفس الوقت اسم اكتسبه في أثناء المقاومة، ويراها تتويجاً لسبعة وثلاثين سنة من العمل الثورى المتواصل، وما إن تم اختياره سكرتيراً عاماً للحزب الشيوعى اليوغوسلافى، حتى أخذ في تغيير هياكل الحزب ومناصبه بأجمعها - وساعده على تعلق الناس به والتفافهم حوله، أن حاكم يوغوسلافيا آن ذاك الأمير «بول» انحاز إلى جانب النازى (الألمان) مما أثار سخط الشعوب التى تتكون منها يوغوسلافيا، فى الوقت الذى دفعت فيه - من

أبنائها وبناتها - ثمناً غالياً، بل مخيفاً: ١٧٠٠٠٠٠ قتيلاً أى بنسبة ١١٪ من مجموع السكان! من بينهم - رجالاً ونساء - من مات من التعذيب حرقاً وذبحاً ورمياً بالرصاص فى ثلاثمائة معسكر اعتقال أقامها الألمان وحلفاؤهم الإيطاليون على أرض يوغوسلافيا، أى ثلاثة أضعاف الذين ماتوا فى يوغوسلافيا أثناء الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨)، ودمروا ثمانمائة وخمسين ألف منزلاً.

وهذه الأرقام المفزعة تبين إلى أى مدى تكمن روح المقاومة، والإصرار العنيد على الاستقلال، لدى تلك الشعوب، وبمجرد أن أعلن تيتو كلمته الملهبة: «لا يحق لأحد أن يرضى عن احتلال البلاد»، حتى انضم إليه ثمانمائة ألف رجل وامرأة، توزعوا على اثنتين وخمسين فرقة، ومائة وسبع كتائب، لديها مصفحات، وأسلحة ثقيلة، وحتى بعض الطائرات! والعجيب حقاً أن هذه المقاومة المسلحة، والمنظمة، لم تستعن بأسلحة من جيوش الحلفاء (المحاربين للنازى وأشياعه)، ولا بتدخل مباشر منهم، وإنما كان معظم تسليحهم يأتى من جانب الألمان! مما كانوا يغمونه فى المعارك، ومن الهجوم على معسكرات ومواقع جيش الاحتلال، وكان لزاماً على فرق وجماعات المقاومة أن ينزلوا من مئات الجبال، وأن يتقدموا زاحفين شبراً بشبر، وشارعاً بشارع، ومن حولهم يؤازرهم ثمانية ملايين رجل وامرأة، فتى رفاة، يحملون السلاح فى المصانع والمزارع، فى المغارات والكهوف، إنها أمة بأسرها - بلا ضجيج ولا صراخ ولا استغاثة ولا طنطنة دعائية

- تتحرك فى نظام مدهش، وبسالة نادرة، واعتزاز بالنفس لا يُقاوم، مع ابتسامة غلابة على كل الوجوه، حتى تحقق لها النصر.

وفى برلين، استشاط هتلر غيظاً وغضباً من موقف هذه الدولة الصغيرة التى لا تبعد كثيراً عن ألمانيا (تفصل بينها النمسا) فيأمر بتدمير بلجراد. كان هذا أول أخطائه الكبيرة.

كانت يوغوسلافيا هى الشوكة المؤلمة فى حلقى الفوهر - هتلر - إذ كلفته ستة أسابيع كاملة فى محاولة قهرها وترويضها. وهذه الأسابيع الدامية المرهقة، أعاقَت تقدمه بسبب الجليد نحور روسيا التى أعلن عليها الحرب، وأفقدته كل فرصة كان يتوقعها للنصر (من المفارقة الطريفة أن هتلر أطلق على معركته ضد روسيا اسم: براروسا). ولم تكن المقاومة اليوغوسلافية سهلة ميسرة، إذ كانت الحاجة ماسة دائماً إلى السلاح، وإلى الذخيرة، والمؤن، ومنذ البداية، فإن أول موقع للشرطة احتله ستة رجال من المقاومة، ثم فى سرعة خاطفة، وبضحايا عدد كبير من جنود النازى، والمدهش أن هؤلاء الرجال كانوا يحملون بنادق صيد بدون خراطيش! ولكن، من كل قمم الجبال، ومن أعماق كل الغابات، ومن جوار كل الشُّطآن، ومن داخل كل البيوت، فى القرى والبوادي والمدن، انطلقت شرارة البعث غير المرئية، والتى لم تستطع أن تخمد جذوتها أربع فرق مسلحة تصحبها الطائرات القاذفة، أرسلها هتلر على عجل.. ولكن هيهات!

لم تأخذ المقاومة اليوغوسلافية حقها المناسب من تسجيلات التاريخ المعاصر، ولم تبلغ ضراوة ونجاح المقاومة ضد الاحتلال - أيًا كان نوعه - فى أية دولة أوروبية مثلما كانت فى يوغوسلافيا. ومن هنا، لم يرتفع العلم ذو الصليب المعقوف (النازى) طويلاً فى سماء يوغوسلافيا، وحتى فى يوم عقد اتفاقية مع الألمان قبيل الرحيل، وقع هجوم على مركز القيادة الألمانية، ومزقت الأعلام النازية، وأشعلت النيران، ونظم ثلاثمائة من الصبية فيما بينهم جماعات صغيرة انطلقت فى بلجراد - العاصمة - تهاجم مواقع للجيش المحتل، ومواقع للمتعاونين معه، وكان أسلوبهم كالآتى: فى وضح النهار، يبدعون بالهجوم على أكشاك الصحف، ويخطفون الصحف الألمانية والصحف المحلية الممائلة لها، ثم يسرعون إلى الموقع المختار، ويمسك أحدهم بتلك الصحف، ويسكب الثانى عليها البنزين، ويشعل الثالث فيها النار، ثم يقذفها نحو الهدف ثم يفرون. لم يستطع جنود الاحتلال القبض إلا على جماعة واحدة من هؤلاء الفدائيين الصغار، وأعدموا أفرادها رمياً بالرصاص، ومع ذلك لم يخف غيرهم من الصبية، وتابعوا هجومهم على نطاق واسع طوال اليومين التاليين! وأضرمو النيران فى عشرات السيارات الحربية النازية، وفى جراح واحد ضخّم دمرو أكثر من مائة سيارة!

فى القرى والريف، استخدم الفلاحون الفئوس وأسلحة المحارث وأدوات الزراعة فى الهجوم على معسكرات النازى وقتل الجنود الألمان

والخونة المتعاونين معهم، وبضربة بلطة واحدة، أطاح أحدهم برأس جندى ألماني كان يعبر راكباً دراجة بخارية. وفي «مونتيجرو» نجح هؤلاء المقاتلون البسطاء في إعاقة تقدم فرقتين إيطاليتين، بل واستولوا على معظم الأسلحة التي كانت في حوزة جنودهما. وفي زغرب انهالت القنابل على فريق من الكروات المقربين من الألمان كانوا يؤدون عرضاً موسيقياً، لكن الثمن كان فادحاً: قبض المحتلون في ٢١ أكتوبر ١٩٤١ على سبعة آلاف من طلاب الجامعات والمدارس وأساتذتهم، وأطلقوا عليهم جميعاً الرصاص! ومع ذلك، في غمرة تدفق أنهار تلك الدماء الفياضة المتزايدة، نشأت الوحدة الوطنية وتوثقت بين أبناء الجمهوريات الست اليوغسلافية المحتلة، وشارك في ذلك كله جميع أبناء الشعوب المتضامنة معاً، حتى النساء. ومن مقدونيا إلى سلوفينيا تواصلت مسيرات جماعات المقاومة، تحت الأمطار المنهمرة بغزارة والثلوج المتساقطة وعواصف البرد القارس، ينضم إليهم في الطريق المزارعون الذين هجروا حقولهم خوفاً من اعتداءات جنود الاحتلال، وهم يسوقون ماشيتهم وأغنامهم. تلك أمة بأجمعها، دائمة التحرك متواصلة المقاومة والقتال، وهو قتال لا يرحم، ولا يعرف الهوادة ولا المهادنة. حتى آلاف الجرحى الذين كانوا ينقلون على ظهور البغال والخيول، لم تفارقهم أسلحتهم تحسباً لأية مفاجأة، فالألمان لا يأبهون بجراح المصابين بل يجهزون عليهم بغير اكتراث.

كل ذلك يحدث، وتيتو بين الجميع، مثل الجميع، أصيب مثلهم

فى إحدى المعارك عند مدينة «أوزيتش» بالبوسنة فى مايو ١٩٤٤ ، حتى إن «هيملر» رجل النازى القوى اعترف بلا مواربة أو خجل، إذ قال لبعض مرعوسيه: «يؤسفنى أنه ليس لدينا عشرة رجال مثل تيتو. إن هذا الرجل لا يملك أقل موهبة تميزه أو تجلب له الحظ، ومع ذلك فهو يفلح دائماً فى التسلل خفية من بين أصابعنا.. إنه يزعجنا ويؤرقنا، لصلابته فى المعارك.. لقد سحقنا له فرقاً ومحونا آثارها، ولكن فى كل مرة، يجهز هذا الشيطان غيرها» .

هل كان «هيملر» ذكياً حسن الإدراك والفهم؟ مطلقاً. هل لم يكن تيتو حقاً يملك شيئاً مميزاً؟ إن تيتو كان بالفعل يملك ميزة، ضخمة رائعة. وهى تفسر كل شىء: الشجاعة التى لا يتطرق إليها أدنى شك لدى شعب يدرك تماماً لماذا يُقتل ويقاتل. هنا يكمن سر انتصاره - بسلاحه وأدواته المحدودة - على أقوى جيوش العالم فى عصره.

ولقد كرم الشعب - أو مجموعة الشعوب - اليوغوسلافية قائد المقاومة الذاتية الباسلة، تكريماً مناسباً: ففى أثناء انعقاد مؤتمر «يالطا» (الذى أعقب الحرب العالمية الثانية، واقتسمت فيه الدول الكبرى المنتصرة مناطق السيطرة والنفوذ فى كل أرجاء العالم، والذى لم يوجه فيه ستالين الدعوة لحضوره إلى «صديقه» الحليف المميز تيتو)، فى هذه الأثناء منح الشعب قائده مرتبة ولقب «ماريشال». وفى ذلك اليوم،

صدرت آخر نشرة حربية من مقر قيادة المارشال تيتو وفيها: «إنه في الفترة من ٢٠ مارس إلى ١٥ مايو، قتلت جماعات فرق المقاومة ٩٩٩٠٧ فرداً من جنود العدو، وأسرت ٢٠٩٦٣٩ من بينهم الجنرال الألماني «لير» قائد الجبهة الجنوبية الشرقية، واستولت على ١٨٢٠٠٠ بندقية من أسلحة العدو، و ٢٤٤٥٤ رشاشاً، ١٣٢٠ مدفعاً، و ٤٠ طائرة!»

انتخب أعضاء الحزب «المارشال تيتو» رئيساً للحكومة المؤقتة التي تولت زمام السلطة عقب انتهاء الحرب، وهي الحكومة التي مثلت يوغوسلافيا رسمياً في مؤتمر طهران، وبذلك انتهى حكم الأسرة الملكية التي كانت تحكم البلاد، والتي هرب أفرادها - خلال فترة الحرب - إلى لندن.

شرع تيتو - منذ عام ١٩٤٥ - في وضع نظام ودستور للدولة اليوغوسلافية المتحررة (بدون تدخل من الجيوش الأجنبية) باعتبار أن يوغوسلافيا «دولة ديمقراطية شعبية فيدرالية». ورفض الانحياز إلى موسكو، فنشأ خلاف حاد بينه وبين ستالين عام ١٩٤٨. (كان المقرر في مؤتمر يالطا عقب الحرب العالمية الثانية أن تقسم يوغوسلافيا بالتساوي بين روسيا وحلفاء الغرب، لكن تيتو - وشعبه من ورائه - رفض بإصرار وأعلن عن استمرار المقاومة. فعدل المؤتمرون عن هذه الفكرة، وبدأ سخط ستالين وغضبه من تيتو).

«إن يوغوسلافيا أصبحت ثمرة من الجوز، يصعب تماماً كسرها». هكذا قال تيتو فى السنوات التى أعقبت الحرب، وهو يعنى ما يقول.

أصبح ليوغوسلافيا جيش نظامى (يحتفظ بخبراته السابقة فى المعارك الحربية) يتكون من ٢٥٠ ألف جندى ونحو ألفى دبابة روسية وأمريكية، وأكثر من ثلاثمائة طائرة مقاتلة قاذفة، من بينها طائرات ميج وف - ٨٤، ومئات من الطائرات الهليكوبتر الفرنسية (معظم هذه الأسلحة والطائرات موزع على جمهوريات: الصرب - كرواتيا / سلوفينيا، وحرمت منها جمهوريات مثل: البوسنة - الهرسك / مقدونيا..).

ومن خلال «نبض» تيتو، بذلت جهود ضخمة لتحديث يوغوسلافيا على الرغم من أن جيشها كان يستهلك نحو ٥٠% من الميزانية السنوية الفيدرالية. (مرة أخرى نشير سريعاً إلى الظلم أو الإجحاف الذى وقع على الجمهوريات المسكينة التى كانت تدفع حصتها للميزانية الفيدرالية ولا تأخذ نصيبها العادل من نصفها الموجه إلى التسليح ودعم قواتها، وأيضاً صناعاتها). فى سنوات قلائل نسبياً، نجحت الصناعات الحربية فى يوغوسلافيا بأن تلبى ثلاثة أرباع احتياجات قواتها المسلحة، وظهر هذا الإنتاج الحربى فى الأسواق العالمية (الموردة لدول العالم الثالث أو المتخلف أو غير النامى!) منافسة لإنتاج السويد، وفرنسا، وتشيكوسلوفاكيا (سابقاً إذ انقسمت مؤخراً إلى جمهوريتين: التشيك والسلوفاك).

فى عام ١٩٤٨ يظهر واضحاً بين رجل روسيا المرعب «ستالين» وبين رجل يوغوسلافيا القوى العنيد «تيتو». وقبل موته - المفاجيء الغامض فى موسكو - يصدر ستالين أمراً سرياً بالتخلص من «تيتو»، أى بقتله! ومن التعبيرات الشائعة المشهورة عن ستالين يومها أنه قال لخروتشيتشيف: «لو أننى رفعتُ أصبعى الصغير، لهُوى تيتو على الفور واندحر!» وسرعان ما أعلنت الدول الاشتراكية (فى أوروبا الشرقية والمتحالفة قهراً مع روسيا) أن تيتو خائن للمبادئ «الديمقراطية» اللينينية الاشتراكية. ولم يعبأ تيتو، واتجه - برغم احتفاظه بسياسته الشيوعية الاشتراكية - نحو الغرب. ثم يوقع فى عام ١٩٥٥ (بعد موت ستالين) إعلاناً مع روسيا (الإتحاد السوفيتى) يقضى بالحقوق المتساوية بين البلدين، والعلاقات القائمة على الاحترام المتبادل، وحق كل منهما فى اختيار الطريق المؤدى إلى تمام الاشتراكية. (وانقطع فى عام ١٩٩٠ هذا الطريق الشائك الشائن فى معظم الدول الاشتراكية الشيوعية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى المتفكك، واتجاهها العكسى نحو الغرب!).

فى لقاء صحافى، سُئل تيتو:

— هل تتوقع ابتعاث أو ظهور ستالين جديد فى روسيا؟

فأجاب:

— «لا، لم يعد الرجوع إلى الوراء ممكناً. إن المواطنين فى روسيا اليوم

يطمحون إلى حرية التعبير، بعد أن خرجوا من تلك الفترة المظلمة التي ألجمت كل فرد، وكان فيها من العسير على شخصين أن يتحادثا بحرية وصراحة، لأن كلاً منهما كان يحذر الآخر! (وشهد شاهد من أهلها! وبالمناسبة: الذين عاشوا في مصر تلك الفترة من منتصف الخمسينيات وطوال الستينيات يدركون جيداً وقع ومغزى هذا «التصريح» من تيتو).

ومع ذلك، رفض الماريشال أن يسمح في بلده بتعدد الأحزاب لإتاحة فرصة أكبر لحرية التعبير والرأى. فأجاب عن ذلك - حين سئل - بقوله:

- إن هذا يفتح باباً للبلبله والاضطراب - ١ - ومنذ البداية، لم تُطرح للمناقشة فكرة التعدد الحزبى. لماذا؟ لأن كل قادة الأحزاب البورجوازية اليوغوسلافية تقريباً (أى الذين كانوا قبله) كانوا متعاونين بصورة أو بأخرى مع العدو المحتل، وكانوا يعملون ضد حركتنا التحريرية... (وهذا زعم عجيب: إذ لو افترضنا صحة تلك الأسباب، فليس من الإنصاف وحسن المنطق أن نحرم أجيال بأكملها من حق طبيعى فى الوجود بسبب أخطاء أفراد قلائل، وكلهم ماتوا أو قتلوا أو فروا. وهل نمنع استخدام السيارات مثلاً لأن قلة من بعض السائقين تقتل أفراداً فى كل عام ١٩). ثم يتابع تيتو بقوله:

- إن الكتل الشعبية ملتصقة بنا، كانت معنا فى الكفاح، وقبِلت

منهجنا. وفي تلك الظروف، ما الذى يدعو إلى ابتداء أحزاب جديدة؟

ثم يبدو التناقض الواضح - أو قل: الصارخ - بين ما صرح به أو يدافع عنه، وبين رأيه السابق فى مناخ القهر والرعب بالاتحاد السوفيتى وإجابته عن السؤال:

- فى بلجراد، وبكين، وموسكو، وتيرانا (عاصمة ألبانيا المسلمة) هل تتلائم وتنسجم الماركسية اللينينية مع الاشتراكية الإنسانية؟ قال:

- حسناً! هذه مسألة جوهرية. إن كل أيولوجية ماركسية لينينية منبثقة عن الإنسانية فالعنصر الإنسانى متطابق تماماً مع القيمة الإنسانية. إن حد السلاح الأيديولوجى لا يهدد إلا أعداء الثورة الاشتراكية، إن المجتمع الاشتراكى الحق، عليه أن يضمن حرية العمل، وحرية الإنسان، والازدهار الكامل للشخصية الإنسانية. (هل هذا صحيح؟ ولماذا كانت انتفاضة «شعوب» الدول الاشتراكية بدءاً من روسيا حتى دول الكتلة الشرقية السابقة، وقد أعلنت سخطها ورفضها الكامل لهذا النظام وقياداته ومزقت أعلامه وحطمت تماثيل زعمائه، ومحت كلمة «الشيوعية» و «الاشتراكية» من دساتيرها الجديدة؟ من هذه الدول يوغوسلافيا ذاتها).

وفى هذا المنعطف - أو المنحدر - بالذات، سئل تيتو فى السنوات الأخيرة من عمره:

- إن كل القوانين والشرائع الدولية والدينية تخضع على احترام المعنى والقيمة الإنسانية، ويندرج فيها ما يصرح به الزعماء الشيوعيون، فما هو تفسير «الفشل» الذى يحق بدول الأيديولوجية الاشتراكية، وهو ما تراه أعيننا؟ أجاب:

- لا، ليس هذا فشلاً، لنضع فى اعتبارنا تطور المجتمع على المدى الطويل، إننا نرى الاشتراكية اليوم على النحو الذى لا يرغب البعض فى أن تكون عليه. إن العالم يتجه نحو العلاقات الاجتماعية المتنامية - برغم ما يعانيه من أزمات ومشكلات خطيرة متزايدة - وهذا ما غنى للاشتراكية عنه. وإذا نظرت حولك، فسوف ترى أن عدداً كبيراً من دول العالم يتخذ لنفسه طريق الاشتراكية، فى عدد لا بأس به من الدول الأفريقية يتدعم هذا الاتجاه.. إن العالم يتجه بحق نحو الاشتراكية.. اليوم يبدو بوضوح خطأ هذه النظرة، وعكس تلك النبوءة، فإن غالبية هذه الدول التى أشار إليها غيرت بسرعة جلودها وأصبحت تمقت تلك الكلمة «الاشتراكية» وتخلج من ذكرها. إلا أن رأى السيد الذى أصاب فيه عين الحقيقة - أثناء هذا الحوار الذى جرى معه قبيل وفاته عام ١٩٨٠، هو قوله:

- إن القوى العظمى لها دائماً أهدافها «العظمى». وهناك دائماً «من» يدفع ثمن تلك الأهداف. واليوم، يكثُر شيئاً فشيئاً عدد الدول والشعوب التى لا تريد ولا تسمح بأن تتحقق تلك الأهداف «العظمى»

من حسابها الخاص! إن الذى لا يحترم - قبل أى شئ - بلده ووطنه وأمته، لا يمكن أن يحترم البلاد والشعوب الأخرى، ولن يجد الاحترام من تلك البلاد والشعوب.

بريوني - يوغوسلافيا - عام ١٩٥٦ :

يتم لقاء تاريخي بيت تيتو وجمال عبد الناصر وجواهر لال نهرو وباجتماع الثلاثة يظهر فى الوجود شعار «عدم الانحياز»، وتسرع دول العالم الثالث إلى الانضمام والتلاقى معاً تحت هذا الشعار، إذ لا بد من تجمع يقف بين القوتين الكبيرتين، لكل عضو فيه إرادته المستقلة، وحرية الذاتية، ومسلكه الخاص. ونظام حياته الملائم له، بدون خضوع لهذا أو ذاك، وبدون تبعية لشرق أو غرب. (أو هكذا كان المفترض أن يكون). فى «باندونج» باندونيسيا كان اللقاء الأول لتلك الدول تحت اسم «الدول الآسيوية الإفريقية». وفى اجتماع بلجراد عام ١٩٦١ اختار لها تيتو اسم: «دول عدم الانحياز».

عاش تيتو وعمر طويلاً - ٨٨ سنة - حتى أن المحيطين به كانوا يشيرون إليه فى أحاديثهم فيقولون: «العجوز». وأمضى النصف الثانى من هذا العمر المديد وكأنه ملك، بل إمبراطور أو قيصر، وقد وصفه أحد المعلقين السياسيين بقوله: «عاش - مع زوجته جوفانكا - حياة أصحاب المليارات». وهو وصف غير مكتمل، فالى جانب أبهة ونعيم وبذخ أصحاب المليارات الذين ينعمون بها ويترفون، تضاف السلطة،

والسيطرة، والتسيّد في دولة ترفع شعار لينين: «إن القادة هم المثل العليا للطبقة العمالية. إن هذه الطبقة - البلوريّتاريا - تتطلب «مساواة» مجردة في الحقوق، وانعدام الامتيازات إطلاقاً مهما كانت طفيفة، وهى عدو لكل تعصب قومى».

إن ابن المزارع البائس المعدم الذى عاش طفولة قال هو بلسانه عنها: «كنت مع إختوتى وأختوتى نبكى صغاراً من الجوع، عشت السنوات السبع الأولى فى عناء مستمر، وزاد الأمر سوءاً أن هذه الفترة تزامنت مع أزمة غير عادية طاحنة كانت قاسية على الفلاحين، وبصورة مفرطة فى مناطق مثل كرواتيا التى ولدت ونشأت بها».

إنه هو نفسه - برغم كفاحه البطولى وانتصاراته التى لا تُنكر وصورته المحفورة فى خيال الشعب (أو مجموعة الشعوب اليوغوسلافية) ومواقفه التى لا تنسى مع ستالين، وتشرشل، وديجول، وماوتسى تونج.. - نراه على الجانب الشخصى يعيش ويتنقل فى ثراء باذخ وترف قل أن يضاهى: عشرات القصور، والاستراحات فاخرة، متعددة المواقع والأشكال، فى بلجراد، ولوبليانا، وبريوني المطلة على بحر الأدرياتيک بحدائقها الفسيحة وقصرها المنيف (كانت هذه الجزيرة مقراً لإقامة العائلة الملكية الإيطالية سابقاً) التى يصفها البعض بأنها: «جنة حقيقية على الأرض»! ما أكثر الزعماء والقادة الذين استقبلهم «تيتو» وزوجته چوفانكا فى هذا المقر الساحر: جمال عبد الناصر، مونتهجورى، بولجانين، خروتششيف، فوستر دالاس، نهرو، هيلاسلاسى، وملك

اليونان وعشرات غيرهم..... وقطار فاخر خاص أزرق اللون، ويخت مدهش، وحدائق نباتات وحيوانات ملحقة بالقصور، غير الاستراحات المتناثرة في داخل الغابات المعدة لرحلات الصيد..

في إطار هذا البذخ والنعيم، لا تكاد تفارق «المارشال» زوجته الثالثة «چوفانكا دوديسا فليفتش»، لا في داخل يوغوسلافيا ولا في سفراته إلى الخارج، حتى عام ١٩٧٧، أي قبل وفاته بثلاث سنوات.

كانت مقاتلة في جيش المقاومة ضد الاحتلال النازي، وهي من أسرة صربية، عندما كانت في سن السابعة عشرة دخل الألمان كرواتيا حيث تقيم أسرتها. وذبحوا كل أفرادها، ونجت هي من الموت بأعجوبة. فأنخرطت في فرق المقاومة، ومنحت رتبة ملازم. وفي عام ١٩٤٧ طُلقت تيتو زوجته الثانية «هَرتا» وهي من سلوفينيا، وكانت تعمل مدرسة، ثم انضمت إلى فرق المقاومة المسلحة. وعندما بلغت چوفانكا سن الثمانية والعشرين، ألحقت بسكرتارية تيتو العسكرية. فكان لقاء، وإعجاب، فاصطفاء. ظل الأمر سرّاً خافياً نحو عام، لا يعرفه إلا قليل من المقربين، إلى أن زار وزير الخارجية البريطانية «أنتوني إيدن» بلجراد في ١٨ سبتمبر ١٩٥٢، فأقام له «تيتو» حفل استقبال فاخر، وفوجيء الذين تلقوا بطاقة الدعوة لحضور هذا الحفل، أنها تحمل هذه العبارة: «المارشال جوزيب بروز تيتو وعقيلته...». ظلت چوفانكا على مقربة من «المارشال»، ومن مقابلاته ورحلاته الرسمية وغير الرسمية،

واجتماعاته: فى مصر، وكوبا، وبريطانيا، وفرنسا، وإندونيسيا، وإثيوبيا، وكينيا، والهند... إلى أن اختفت من الصورة، وبخاصة أثناء زيارة الماريشال الرسمية إلى الاتحاد السوفيتى وكوريا والصين عام ١٩٧٧، وتساءل الناس، وأجاب الزوج العجوز: إذا كان هناك خلاف داخل بيته، فهذا أمر عادى يحدث فى كل البيوت.

ثم تسربت أخبار عن حقيقة ما حدث: إن جوفانكا - وهى من أصل صربى - ظلت لبضع سنوات مضت تشارك فى تنفيذ تخطيط يشبه المؤامرة من وراء ظهر زوجها لإحلال أصدقائها من الصربيين فى بعض المراكز الهامة والكبرى - خاصة فى الجيش - محل أبناء القوميات الأخرى. وهذا أمر خطير فى بلد يرقد على بركان ست قوميات يكاد أن يتفجر بين لحظة وأخرى: البوسنيون، والصرب، والكروات، والسلاف، والمقدونيون، والمونتجريون، إنه خطأ فادح ترتكبه زوجة الماريشال، وهو فى خريف عمره، فى حين كانت هى فى قمة نفوذها وتألقها. إنها تشعل - من حيث لا تدرى - فتيل حرب أهلية، تصطرع فيها أحقاد وتطلعات القوميات المترتبة. إنها جريمة لا تغتفر. هل قدمت جوفانكا إلى محكمة سرية كما يزعم البعض؟ ربما كانت هذه إشاعة، لكن الأمر المؤكد، أن الماريشال الزوج المحب، قرر على الفور إبعادها - فيما يشبه النفى - إلى أحد قصوره قرب بلجراد، ولم يلتق بها حتى مات إلا مرة واحدة، فى زيارة قصيرة إلى مقر إقامتها. وقبيل وفاته، أرسل إليها باقة ورد، لكنه طوال فترة علاجه

بالمستشفى فى لوبليانا (وقد امتدت إلى عدة شهور قضى منها مائة وعشرين يوماً فى غيبوبة كاملة بعد إجراء جراحة قطعت فيها ساقه اليسرى). لم يتم لقاء بينهما، ولم يسمح لها بزيارته.

إن الكبار أيضا يخطئون.. ويضجرون!

إذا كان الخطأ عن غير قصد، فهو اجتهاد قد يُغفر ويصح، أما إذا كان عن تدبير وقصد، فتلك هى «الجريمة» التى تستحق المساءلة والعقاب.

لم يكن خطأ «تيتو» وحده أنه أجرى «تنقلات» جماهيرية على نطاق واسع - سواء بالإغراء أو القهر - لتدوين القوميات فى بعض المناطق، وتمييع التفوق السكانى هنا أو هناك. إنه أسلوب النظم الشيوعية والديكتاتورية المتسلطة (المثال الواضح والخطير أيضاً ما حدث فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق والتى توشك أن تنفجر صداماتها العرقية والقومية).

لكن هذا ما حدث، وترتبت عليه آثار خطيرة. فعلى كره منها ومضئ. صبرت بعض شعوب الاتحاد الفيدرالى اليوغسلافى طوال حكم تيتو الذى كان يعرف جيداً كيف يمسك بكل الخيوط ومفاتيح الضغط وصمامات الكبح. لكنها أُمست وكأنها قبلة موقوتة شديدة الاشتعال، تنتظر أن تنفجر مدوية مدمرة فى الموعد الموقوت!

وقد كان...!

(٦)

ميراث متقل بالهموم... والديون

غادر «تيتو» عالمنا الشجىّ الشقىّ عام ١٩٨٠ ، ويوغوسلافيا مقسمة - أو بالأحرى منقسمة على نفسها - فى ست جمهوريات ومقاطعتين، يجمعها كلها سياسياً - من حيث الشكل والتعامل الدولى - اتحاد فيدرالى، بالإضافة إلى جماعات عرقية كثيرة منبثة داخل هذا الكيان المحموم.

لماذا «يوغوسلافيا» ؟

إنه عودة بهذا الاسم إلى ما كان يطلق على قبائل تلك المنطقة فى القرن الخامس قبل الميلاد: سلاف اليوجو، أى سلاف الجنوب، الذين يسكنون الأرض ما بين شمال شبه جزيرة البلقان حتى البحر الأسود، تمييزاً لهم عن أبناء الأعمام والأخوال الذين تضمهم قبائل التشيك والبولنديين، الذين هاجروا بدورهم من أراضي يسكنها سلافيون آخرون: وهم الروس والأوكرانيون.

عندما غادر الأتراك العثمانيون مناطق البلقان (فى أعقاب حرب البلقان عام ١٩١٢ - ١٩١٣) بعد حكم دام نحو خمسة قرون^(١)، تركوا وراءهم تراثاً ثقافياً وحضارياً يصعب اقتلاعهما أو الإغضاء عنهما. لكن المطاعم والتطلعات الكامنة فى نفوس بعض الأقليات السكانية والشعوب التى يتألف منها الاتحاد الفيدرالى اليوغوسلافى، وجدت متنفساً لها بعد مغادرة الرئيس تيتو هذه الحياة.

إن صربيا (جمهورية الصرب) ضاعفت تقريباً مساحتها - بعد رحيل العثمانيين - ولم تقنع، بل تريد دائماً المزيد، وعلى الأخص: البوسنة والهرسك (هرزجوفينيا).

لم تهدأ الصرب بعد توحد الصرب والكروات والسلاف فى مملكة واحدة بعد الحرب العالمية الأولى يحكمها الملك الصربى «الكسندر» الذى اغتاله أيضاً صربى من الانفصاليين أثناء زيارته لمدينة مرسيلىا - الفرنسية - عام ١٩٣٤.

ولعل الرجل الوحيد الذى استطاع تجميع شعوب هذه المنطقة - المتعددية المتنافرة - فى دولة عصرية متماسكة، هو ذلك المحارب الكرواى القادم من حطام الحرب العالمية الثانية: الماريشال تيتو. إن نجاح «تيتو» ومعاناته القاسية فى تحقيق ذلك، أضفيأ عليه - وعلى حزبه

(١) لن نتعرض هنا لسقوط الخلافة العثمانية وما فعله مصطفى كمال أتاتورك فهذا يحتاج لدراسة أخرى مستفيضة.

الشيوعى - هالة من البطولة، ودفعتاه إلى ذروة القمة بين أبطال الحرب، مما يسر له الحصول على كل شىء وتحقيق أى مطلب فى الداخل أو الخارج. وتناسى الجميع المذابح المروعة التى راح ضحيتها مئات الآلاف من أبناء الأجناس والقوميات.

كان «جوزيب بروز» يعرف تماماً حقيقة ما يجرى على السطح، أو داخل النفوس، وفى أدمغة الشعوب التى ربطها ربطاً متقناً وجريئاً بخيط قلادته. لم يكن الأمر هنا وميض ضربة حظ، بل يشهد الواقع والتاريخ أنه سداد ضربة معلم!

ولكى يلجم الصرب، ويحول بينهم وبين التسيّد والسيطرة على الدولة كلها، أعطى استقلالاً ذاتياً (حكماً ذاتياً) لكل من: فوجوفودينا (وبها أغلبية سكانية مجرية وهى فى الشمال) وكوزوفو (وبها أغلبية سكانية ألبانية، وهى فى الجنوب). من هنا، يمكن تفسير سلوك الصربيين بعد وفاة تيتو، إذ مزّقوا فى الميادين العامة صوره، بل وارتفعت من بينهم أصوات تطالب بنقل رفاقه من بلجراد (التى تقع فى قلب جمهورية الصرب)!

ها هو ذا الوقت قد حان لتجديد أحلامهم القديمة، وابتعاث روح الثورة والتمرّد والطغيان، التى خمدت أثناء حكم تيتو وبعد أن أثارها وأهاجها مبدأ الرئيس الأمريكى «ويلسون» الذى أعلنه عقب الحرب العالمية الأولى. عند تصفية الإمبراطوريات القديمة ذات الشعوب

والأجناس المتنوعة المتداخلة: إمبراطورية آل رومانوف فى روسيا، وإمبراطورية أسرة هابسبورج فى النمسا - المجر، وأمبراطورية عائلة هوهانزليرن فى ألمانيا. منحت الأغلبية السكانية لشعوب تلك الإمبراطوريات حرية إقامة دويلات مستقلة - وفق مبدأ ويلسون - بدون التقيد بحدود جغرافية طبيعية، كما أنه ليس لازماً أن تكون مشتركة فى المعطيات التاريخية، وإنما يكفى فقط الترابط القومى.

وفى كرواتيا، لم يكن الأمر على نحو أفضل. كانت «زغرب» عاصمة كرواتيا تقود مسيرة النمو والتطور الاقتصادى والصناعى فى يوغوسلافيا كلها (السابقة). إن حداثتها الفسيحة الخضراء المزهرة، ومبانيها القديمة الفخمة الباقية على طراز الباروك المعمارى، (ترجع إلى القرنين ١٧، ١٨م)، وشوارعها الفسيحة المشجرة الغاصة بالسيارات، تكسبها ملامح مدينة فيينا القديمة.

عندما أعلنت كرواتيا فى عام ١٩٩٠ فتح باب الانتخابات - لأول مرة منذ خمسين عاماً - تقدم للنزال فى هذه «المعركة» نحو ثلاثين حزباً. والتفت جبهة المعارضة القوية حول كاتب مؤرخ عجوز (٦٨ سنة) سبق أن زج به فى السجن وهو «فرانچو تودچمان». كان الحكم الذى صدر يقضى بحبسه عشرين سنة (لمجرد أنه ألف كتاباً عن الجاسوسية!) إلا أن تيتو خففه إلى عامين اثنين. كان إقبال الكرواتيين عليه ومؤازرتهم له، بسبب إصراره على معارضة الهيمنة الصربية التى

انطلقت من عقالها، وقد أجمه تيتو ومنع الحديث إطلاقاً - في عهده - عن «صربيا العظمى». كان محور حملات فرانجو الانتخابية يدور حول: «من المحتم علينا أن نفعل شيئاً إزاء هذا الزعم (أى صربيا الكبرى) وإلا فسوف نخرج من الاتحاد يوغوسلافيا، إننا لم نعلن الاستقلال بعد، ولكننا نطالب بتجربة الاتحاد الكونفيدرالى^(١) (بدلاً من الاتحاد الفيدرالى الذى كان قائماً). إن تقليل القيود هو وحده الكفيل بزيادة الروابط التى يمكن أن تعيش فى إطارها شعوب يوغوسلافيا». ولكن ليس هذا هو السبب الوحيد!

لُوبليانا.. عاصمة سلوفينيا:

إن هذا الاسم، مأخوذ عن اسم النهر الذى يمر بها «لُوبليانكا». بالرغم من أن عدد السكان بهذه الجمهورية الصغيرة (تقع فى الشمال الغربى مع الحدود الإيطالية والنمساوية) يمثل نسبة ٨% من سكان الاتحاد اليوغوسلافى (السابق) إلا أنها كانت توفر ٢٠% من مجمل الدخل القومى ليوغوسلافيا، وثالث مجموع الصادرات إلى أوروبا

(١) الاتحاد الكونفيدرالى: اتحاد دول أو ولايات تخضع لسلطة عامة مع الاحتفاظ بحكومة لكل منها، وترتكز السلطة المركزية على نظام للتنسيق بحيث تتخذ القرارات عادة بالإجماع (مثل اتحاد المقاطعات السويسرية). أما الفيدرالى: فهو اتحاد تتنازل فيه الدول أو الولايات أو المقاطعات عن بعض سيادتها - جزئياً - لسلطة مركزية مسؤولة عن استقلال الدولة كلها وحمايتها مع الاحتفاظ ببعض حقوق السيادة الداخلية، خاصة فى سن القوانين (مثل الولايات المتحدة الأمريكية).

والغرب، ومع ذلك، كان عليها أن تعطى الاتحاد الفيدرالى - طوعاً أو كرها - معظم العائد المحقق لها، بدون أية مراقبة أو مشاركة فى الأوجه التى ينفق فيها. إنه مبلغ كبير.. وكبيراً جداً، يمثل ٢٧٪ من ميزانية الاتحاد، وكما قال عضو بغرفتها التجارية «كأننا نلقى بهذه الأموال فى نهر سافا»!

فى أوائل التسعينيات، بدأ التحرش من جانب الصربيين، فهم يتهمون السلافيين بالهمجية وعدم التحضر، وتكونت «فرق» من شباب الصرب اتجهت فى قوافل بالسيارات إلى لوبليانا تهاجم أهلها، وبدأ الأمر كأن دولتين متعاديتين تتناوشان! والغريب أن الأصوات فى صربيا ترتفع - فى جراءة - تتحدث عنه «حقوق الإنسان» و «احترام الحريات»!! وقطعت الصرب علاقاتها التجارية مع سلوفينيا، وألغت أكثر من خمسمائة عقد تجارى وصناعى، وتخفظت على ٢٢٥ مليون دولار كانت لديها لحساب المنتجين السلاف، فرد هؤلاء بالتوقف عن دفع ٤٨ مليون دولار كديون مستحقة للصرب.

وماذا عن التغير المدوى الذى هز بقوة مجتمعات وشعوب «دول الكتلة الشرقية» حتى من قبل الإطاحة - ولو شكلاً - بالنظم الشيوعية الديكتاتورية وذلك من قبل انهيار الدولة الأم: الاتحاد السوفيتى؟ يلخص الإجابة عن هذا السؤال «جانيز كوزيانشيش» رئيس شركة الطيران السلافية، وهو رجل أعمال، وشغل لعدة سنوات منصباً رئاسياً فى الحزب الشيوعى السلافى. قال: «تغيرت شعارات الحزب، واستحدث

شعار: أوروبا الآن. لسنا نتملص من مسئوليتنا عن الماضي، إننا ندرك جيداً أن الشيوعية تعتبر اليوم صورة سيئة، بعد المذابح التي حدثت في ميدان تيانانمين بالصين، وفي تيميسوارا في رومانيا، وما يحدث الآن في يوغوسلافيا، وهذا كله يعيد إلى الأذهان تلك الصور القاتمة عن ستالين والستالينية. يضيف إلى هذه الإجابة «جوتش بوشنيك»، رئيس المعارضة الديمقراطية في سلوفينيا، والذي أمضى من قبل سبع سنوات في السجن لكتابه مؤلفاً نفسياً به إسقاطات سياسية. يقول: «لم يعد الناس يطبقون سماع أى شيء عن الشيوعية، لم يعد لها مكان ولا عمل، ولم تعد منافسة للحرية. ولكن بعد سنوات وسنوات من نهب الشعب وقهره تحول الشيوعيون فجأة إلى اعتناق مبدأ حرية الانتخاب»!

منذ بضع سنوات، وغالبية الناس في يوغوسلافيا - سابقاً - يتوجسون خيفة من اشتعال نيران حرب أهلية، كانوا يخشون - بحق - من تدخل العسكريين، وقال بعضهم: «إذا ما حدث ذلك، فإنه سيكون إيذاناً بزوال يوغوسلافيا». وقال غيرهم: «يستطيع الجيش أن يحتل بيوتنا ومواقعنا. لكنه لن يستطيع مطلقاً أن يصنع اقتصاداً ناجحاً. لن يستطيع أبداً صنع حياة لنا». وسرعان ما اشتعلت الحرب الأهلية!

(٧)

بلد المذابح واللاإنسانية

أصبح حكم الصرب فى السيطرة والسيادة تجسيدا لصورة شبح أسطورى مصاص للدماء، وهى دماء أبناء الجمهوريات والمقاطعتين اللتين كانتا يطلق عليهما يوماً: يوغوسلافيا.

قبل منتصف عام ١٩٩١ بدأ الصراع الدموى بين الصرب - البادئة بالعدوان - والكروات. وأغمضت الولايات المتحدة عينيها عما يحدث طوال عام، وكذلك تشاغلت أوروبا بأمرها ومشكلاتها الداخلية، متعللة بأن شعوب يوغوسلافيا المتناحرة سوف تهوب حتماً إلى رشدها وتكف عن هذا العراك. هذا، فى الوقت الذى كانت فيه الولايات المتحدة وأوروبا معاً، ضالعتين فى إحكام الضغط الخانق على شعب العراق، بعد الفراغ - عسكرياً - من حرب الخليج، وإجلاء الجيش العراقى من أرض الكويت.

وامتدت المذابح والمعارك إلى البوسنة وعاصمتها سراييفو، فأصبح مجال الحرب الأهلية الطاحنة مثلث الأبعاد: الصرب/كرواتيا/البوسنة - الهرسك. ومن عجب لا يخلو من تفتن: أن أجهزة الإعلام والتوجيه السياسى والعمليات العسكرية الغربية - بلا استثناء - حولت هذا المثلث الطبيعى الجغرافى إلى: الصرب/كرواتيا/المسلمين! وكالعادة أخذنا - نحن العرب والمسلمين - هذا «التقسيم» أو التضليل كما هو ولم نُفكر فى صحته أو مغزاه وحتى الأمم المتحدة ومؤسساتها.

نحن نفهم أن «الإسلام» عقيدة وشريعة، عبادة ورسالة، فالإنسان - أياً كان جنسه أو وطنه أو لونه وأصله وأرضه وقومه وعشيرته - قد يكون مسلماً أو لا يكون (كما قد يكون نصرانياً أو بوزياً أو كافراً بالعقائد والأديان). فهو يؤمن بالإسلام ويلتزم بشريعته وأحكامه، ويؤدى عباداته ويدعو برسالته، بدون أن يمنعه ذلك من أن يكون عربياً أو هندياً أو إيطالياً أو صينياً، وبالتالي صربياً أو كرواتياً أو بوسنياً أو مقدونيا.. فلماذا إذن يَمَيِّزُ «المسلمون» بالتحديد فى هذا التقسيم المفتعل. لو كانت حرباً أهلية دينية أو عقائدية، لكان الأولى أن يُقال: إنها حرب أو صراع الأرثوذكس (الصرب)، والكاثوليك (الكروات)، والمسلمين (البوسنيين). وهذا أيضاً تقسيم خاطيء وتعبير مضلل: فمن الصرب مسلمون، ومن الكروات مسلمون، ومن السلاف مسلمون، ومن المونتنجرو مسلمون. ولم يهب رجال ونساء وصبية المسلمين فى البوسنة والهرسك دفاعاً باسلاً عن أرضهم وأموالهم وأعراضهم بدافع

إعلانهم الحرب على الأورثوذكس ولا الكاثوليك. صحيح - وهذا واجب وحق - أن الإسلام أذن للذين يُقاتلون ظلماً وعدواناً أن يُقاتلوا الظالم الغاصب المعتدى، حتى النصر أو الشهادة. لكن هذا المقاتل - فى نفس الوقت - صاحب أرض، وتاريخ، وحضارة متصلة الحلقات، متنوعة الروافد التى تصب فى نهر الإسلام. إن أسبانيا التى شربت من سلسبيل الإسلام، وتغذت من رحيق الإسلام طوال ثمانية قرون، ثم عادت وأبادت على أرضها معظم معالم الإسلام، وألهمت بمحاكم التفتيش ظهور أبنائها المسلمين، وشتتها حرباً لا هودة فيها على كل ما يتصل بالإسلام وأهله، لا يمكن أن تسقط من حسابها ولا من تاريخها هذه القرون الثمانية (والتي كانت أزهى وأضوأ فترات تاريخها كله) مهما جحدت وأنكرت وشوّت وافترت. ومن مغالطات المؤرخين أنهم أطلقوا تعبير «العرب المسلمين» على الضحايا والمطرودين من أرضهم وديارهم فى أسبانيا والبرتغال، وفى الحق هم أسبانيون - أو معظمهم على الأقل - وبرتغاليون، لكنها كانت حرباً «دينية» كئيبة كريهة معلنة صريحة ضد الإسلام ومن يدين الإسلام.

فهل يعيد التاريخ نفسه؟ وهل هذا بداية تمهد لطريق يتسم بالتعاسة والشقاء والإفناء مع بداية القرن الحادى والعشرين؟؟

عندما كانت فرنسا تعتبر تونس والجزائر والمغرب جزءاً لا يتجزأ من أراضيها (قبل استقلال تلك البلاد)، وجندت فرقاً عسكرية بأكملها

من أبناء هذه المناطق للمشاركة جنباً إلى جنب مع المقاتلين الفرنسيين أثناء الحربين العالميتين الأولى والثانية، لم تطلق عليها «الفرق الإسلامية» أو جيوش المسلمين، وإنما كانت تسميها «الفرق الجزائرية الفرنسية» أو «المغربية الفرنسية» وهكذا. وكانوا جميعاً من المسلمين!

قد يقول قائل: إن الإسلام لا يعرف التقسيمات الجغرافية ولا يقر الفواصل الإقليمية فأمة الإسلام أو المسلمين واحدة، هذا صحيح من وجه، ولكن الصحيح أيضاً أن النبي صلى الله عليه وسلم - كما ورد ثابتاً صحيحاً موثقاً - بعث معاذ بن جبل إلى «اليمن»، وأرسل أبان بن سعيد عاملاً على «البحرين»، واستعمل صلى الله عليه وسلم عمرو ابن العاص على عمان (ومات النبي وهو أميرها) ووردت أحاديث تشير إلى تلك المناطق الإسلامية بأسمائها المعروفة. ثم كان في عصر الخلفاء الراشدين - رضى الله عنهم - ولاية وقضاة وأمراء جيوش وعمال خراج لكل إقليم بذاته: مصر، والشام، والعراق، وخراسان، وأذربيجان، وإفريقية، والأندلس.. وهكذا.

ونعود إلى البوسنة ومأساتها المعاصرة، ومأساة بلاد الإسلام لإزاءها.

تبلغ نسبة الصربيين نحو الثلث بين سكان البوسنة والهرسك، فوضعوا مخططاً يهدف إلى زيادة هذه النسبة إلى الثلثين، فلما فشل أسلوب حكم يوغوسلافيا جمعائياً بعد موت تيتو (بأن يتناوب رئاسة الاتحاد واحد من رؤساء الجمهوريات الست في الاتحاد الفيدرالى)

أعلنت جمهورية الصرب - صراحة - أنها سوف تضم إلى أراضيها، كل المناطق التي تعيش فيها أغلبية صربية، سواء أكانت في (البوسنة - الهرسك)، أو كرواتيا، أو غيرهما. فأسرعت (البوسنة - الهرسك) تعلن استقلالها وتطلب انضمامها إلى الأمم المتحدة (على غرار ما فعلته دول الكتلة الشرقية الشيوعية التي أسرعت أمريكا ودول أوروبا الغربية بمؤازرتها والموافقة على قبول عضويتها). إلا أن البوسنة - الهرسك لم تجد من يساندها إلا ألمانيا التي اعترفت أيضاً باستقلال كرواتيا وسلوفينيا وأحجم الجميع عن سماع صوتها أو صراخ آلاف الضحايا والجرحى بها، كل يوم!

لماذا؟! .. مجرد سؤال!

ظهر في المجال السياسي تعبير: «التطهير العرقي ethnic cleaning»، واستخدمته وسائل الإعلام الغربية باستفاضة، وأيضاً - للأسف - أمين عام الأمم المتحدة بطرس بطرس غالي، في تصريحاته، والمفروض أنه «أمين» على حقوق جميع الأمم والشعوب خاصة المغلوبة على أمرها، والتي تتعرض لإبادة الطامعين والمتربصين.

إنه تعبير جد خطير، فهو يتيح لكل طاغية جبار متطلع، أن يتجاوز الحدود والقوانين والأعراف الدولية لسحق وابتلاع من يعتبرهم «دخلاء» على قومه وجنسه وما يؤمن به ويعتقد، وهل في كل بلاد

العالم - تقريبا بلا استثناء - دولة تخلو من تجمع أجناس وأعراق وطوائف وسلالات، لكل منها تاريخ ولغة وثقافة وموروثات، ولكنها - مهما قلت عدداً أو ضعفت قوة، لها حقوق متساوية مع كل الذين يسكنون أرض الدولة ويصنعون نسيج شعبها، اللهم إلا في إسرائيل؟! هل نتوقع إذن أن تشتعل نيران الحرب الأهلية الطاحنة المدمرة في كل بلد بحجة أن الأقوى والأكثر عدداً فيها يريد «تطهيراً عرقياً»؟ ألم تكن هذه إحدى ادعاءات هتلر بتفوق وسيادة الشعب الآري (الألمان) فجرّ العالم كله إلى حرب عالمية راح ضحيتها الملايين، وبلغت خسائرها المادية بلايين البلايين؟ ثم.. أى «عرق» فى عالم اليوم نقى مصفى خالٍ من الاختلاط والتزاوج والامتزاج، مهما زيف وادعى المبطلون؟ (يدخل فى ذلك طوائف اليهود)^(١).

باسم «التطهير العرقى» المزعوم، فرّ أكثر من ثلاثة ملايين من البوسنيين - وهم الغالبية - والكرواتيين من المذابح إلى الدول المجاورة والغرب، وعند الحدود، تاركين أرضهم وأهلهم وأموالهم وتاريخهم،

(١) نوضح هنا حقيقة غائبة عن الكثيرين فى الشرق والغرب: وهى أنه ليس يوجد أمة من الأمم تسمى «الأمة السامية»، وإنما هناك مجموعة من اللغات لشعوب فى الشرق الأوسط، هذه اللغات بينها صلة قرابة تدل على أنها ترجع إلى أصل لغوى واحد، أما السامية كجنس بشرى، فهو اصطلاح أطلقه لأول مرة العالم النمساوى «شلوزر Schlozer» عام ١٧٨١ على أبناء سام بن نوح - عليه السلام - وهو اصطلاح مبهم عارضة هكثير من العلماء المتخصصين.

وحمل آلاف الأطفال الأبرياء - غالييتهم أيضاً من البوسنيين - إلى دول تتلهف على زيادة أعدادها بالتبني (أى بأطفال منتجين جاهزين!) وكانت تلك الدول تشتريهم من البرازيل والمكسيك وبعض الدول الأفريقية والآسيوية. الآن يأتيهم - إلى عتبات بيوتهم - أطفال أصحاب مجاناً.. بلا مشقة ولا مقابل!

إنه أكبر تحرك جماعي في أوروبا - بسبب القهر والظلم والذعر - منذ الحرب العالمية الثانية. ومن منظماته الدولية، وقواه العظمى، وقياداته، تنفذ الصرب خططها الهادفة إلى الإستيلاء على ٧٠٪ من أرض البوسنة - الهرسك، و ٣٠٪ من أرض كرواتيا. إنه الحلم القديم الكبير: «صربيا العظمى» يتحول شيئاً فشيئاً - بالدماء والدمار والغصب - إلى حقيقة برغم أنف الجميع، أو قل: بعدم اكتراث البعض، وتخاذل وهوان البعض، ومؤازرة البعض من وراء ستار! ألم يصرح علانية الجلاد الدموي «سلوبودان ميلوفيتش» رئيس الصرب «بأن العالم لن يشعل حرباً بسبب محافظتنا على حقوق الصرب. وإن أوروبا لا تريد الإسلام» ١٩

وصدّقت مجلة «Time» الأمريكية على هذا الاتجاه بقولها^(١): «كان من الممكن - كما حدث مع صدام حسين - أن يردّع ميلوفيتش بالقوة. لكن لا أحد خارج يوغوسلافيا كان - أو لا يزال -

(١) ٨ يونيو ١٩٩٢.

مستعداً للدخول فى حرب معه. إن التدخل العسكرى سوف يسبب خسائر ثقيلة، ربما كانت هناك مذابح وانتهاكات لا إنسانية، ولكن على خلاف محاولة العراق اغتصاب بترول الكويت الوفير، فإن استلاب الصرب العدوانى لحقوق البوسنيين والكروات لا يهدد المصالح الاستراتيجية للولايات المتحدة أو أوروبا بدرجة تكفى للمخاطرة بإرسال جيوش» .

ثم تضيف المجلة:

«إن إقرار الأمم المتحدة بفرض قيود - حظر - على الواردات والصادرات الصربية - عدا الأطعمة والأدوية - قد يجمد مصالح الصرب ويقطع اتصالها الجوى بالعالم، ومع ذلك، فإن المفتاح الرئيسى لهذا الخطر يكمن فى منع وارداتها من زيت البترول الذى هو دم الحياة بالنسبة للصناعة وتحركات الجيوش فى عالم اليوم، لكن هذا المنع لن يوقف تدفق البترول إلى الصرب، لأن أكثر من نصف احتياجاتهم يأتى من روسيا والصين، وهما غير راضيتين عن قرار هذا الحظر، بل إن بعض الديبلوماسيين البريطانيين يرجّح أن البترول ربما يتسرب إلى الصرب من رومانيا، أو من الشرق الأوسط عبر اليونان التى لها علاقات تجارية قوية مع صربيا» !

اليوم.. يمضى نحو عامين على هذا الصراع أو الحرب الشعبية

العقائدية معاً.. وفيها استخدم الصربيون - خاصة - أبشع وأحط الأساليب التي فَجَّرَهَا الحقد والجشع والجبروت والظلم، والتي وصفها وزير خارجية فرنسا علانية بقوله: «إن أقل ما يقال عنها إنها تستخدم أساليب لا إنسانية بشعة».

وجد الصرب فرصة متاحة - بمساندة ودفع دول وسياسات ومؤسسات ومذاهب ومصالح في الشرق والغرب معاً - للعدوان الذي لم يقتصر على القتل والتدمير والغزو، ولم يعمد إلى المواجهة الشجاعة الرجولية (كما حدث في حرب أكتوبر مثلاً) وإنما تجاوز كل المبادئ والأعراف والقوانين الإنسانية، والدولية بدون حياء أو خجل، والعالم كله يشهد ويسمع وهو يقترب من القرن الحادى والعشرين بعد الميلاد، وليس قبله! بل وتصر الدول الكبرى على حظر إمداد «يوغوسلافيا» بالسلاح، والضرر في هذا الحظر يقع على جمهورية «البوسنة - الهرسك» وحدها، وإنهم ليَكْتُمُونَ الحق وهم يعلمون!

لقد هدم الصرب - بالمدافع والطائرات - البيوت والمتاحف والمساجد والمدارس والمستشفيات والجسور ومحطات الماء والكهرباء، عمداً وتكراراً. وذبحوا - نهاراً - نائب رئيس جمهورية الهرسك وهو في عربة مصفحة للأمم المتحدة. وقتلوا النساء، والحوامل، والأطفال، غير ما فعلوا بالشباب والأسرى، ثم تنبه العالم أخيراً إلى «معسكرات» الاعتقال والتعذيب وما يجرى فيها، وهو يفوق ما فعل چنكيز خان، وشارلمان،

وماو، وستالين، وهتلر، وفرديناند وايزايبلا (بالأندلس).. واكتشف «المراقبون» معسكرات اعتقال للنساء البوسنيين، اغتصب «جنود» الصرب «الشجعان» فيها أكثر من ٢٠، وقيل ٣٠، وقيل ٥٠ ألف امرأة مسلمة، بعضهن أقل عمراً من ١٤ سنة(*)!

(*) للعبارة.. وللحق.. وللمقارنة:

فى سنة ثمانى عشرة ومائتين هـ. عزم الخليفة المأمون على «تأديب» وردع الروم (شمال وغرب الدولة الإسلامية) لاعتدائهم على بعض المدن بالثغور. يقول المسعودى فى «مروج الذهب»: «فدعاهم المأمون إلى الإسلام، وخيرهم بين الإسلام والجزية والسيف. فاجابه خلق من الروم إلى الجزية واختار ملك الروم الحرب.

«ولما توجه المأمون غازياً، جاءه بالطريق رسول ملك الروم فقال له: إن الملك يخيرك بين أن يرد عليك نفقتك التى أنفقتها فى طريقك من بلدك إلى هذا الموضع، وبين أن يخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم بغير فداء ولا درهم ولا دينار، وبين أن يعمرك كل بلد للمسلمين مما خربت النصرانية ويرده كما كان، وترجع عن غزواتك. فقام المأمون ودخل خيمته، فصلى ركعتين، واستخار الله عز وجل، وخرج، فقال للرسول: - قل له: أما قولك ترد نفقتى (أى أموالى) فإنى سمعت الله تعالى يقول فى كتابنا (القرآن) حاكياً عن بلقيس: «وانى مرسله إليهم بهدية فناظرة بم يرجع المرسلون. فلما جاء سليمان قال: أتمدننى بمال؟ فما أتانى الله خير مما آتاكم بل أنتم بهديتكم تفرحون». وأما قولك: تخرج كل أسير من المسلمين فى بلد الروم، فما فى يدك إلا أحد رجلين: إما رجل يطلب الله عز وجل والدار الآخرة، فقد صار إلى ما أراد. وإما رجل يطلب الدنيا فلا فك الله أسره. وأما قولك إنك تعمرك كل بلد للمسلمين قد خربته الروم، فلو أنى قلت أقصى حجر فى بلاد الروم ما اعتضت (أخذت العوض) بامرأة عثرت عثرة فى حال أسرها فقالت: وامحمدا! وامحمدا! عد إلى صاحبك فليس بينى وبينه إلا السيف. يا غلام: اضرب الطبل (أى أذن بالخروج للقتال).

«فرحل، فلم يثن عن غزواته حتى فتح خمسة عشر حصناً (أى مدينة) وأدب ملك الروم وقومه...!!!

على كُره منا نسجل هذه «الوثيقة» المفزعة المخجلة التي نشرتها مجلة «بارى ماتش Paris Match» الفرنسية - الطبعة الدولية - فى ٢٨ يناير ١٩٩٣. وهى مفزعة: لأنه ما كان أحد يتصور ولا يتوقع أن تفعل ذلك دولة أو جماعة تريد أن تأخذ مكاناً متساوياً فى مجتمع الدول ونحن على عتبات القرن الحادى والعشرين، وتدعى أنها تتمسك بالأورثوذكسية وتسير على النهج القديم القويم للمسيح، عليه السلام. إنها مفزعة، عندما نتخيل الأحوال والمهانة والوحشية التى تعرض لها البوسنيون - والنساء خاصة. فى «معسكرات الاعتقال»، واستمرار ذلك أكثر من عام ونصف، وحكام وقادة وزعماء العالم «المحتضر» الذى يوضع له الآن «نظام جديد» يسمعون ويشهدون - والأمم المتحدة مع مجلسها «الأمنى» ترقب وتسوّف وتمد فى حبال الاجتماعات والحظر والترتيبات والبيانات وتنفيذ القرارات.. ثم يكاد يخفت صوت المسلمين - قادة وشعوباً - أو يصدر محشرجاً واهناً لا يضر ولا ينفع! وهذه «الوثيقة» - التى دونها كاتب فرنسى غير مسلم - مخجلة فى مضمونها، لأنها تتناول أخط الأساليب الخسيسة التى قل أن يمارسها أناس عاديون، فضلاً عن «مقاتلين» يسعون إلى تحقيق هدف «قومى» وهم يعلمون علم اليقين أن الأسرى أو المعتقلين أو المخطوفين الذين بين أيديهم: أبرياء، ضعفاء، سجناء... لأنهم أطفال ونساء! هل يكفى أن يهاكم هؤلاء «الجنود الشجعان» وقادتهم «الرئيس» جمهوريتهم أمام محاكم خاصة مثل محاكم نورمبرج أو حتى محاكم التفتيش؟ وأى

حكم يصدر يناسب الجرم أو الجرائم التى ارتكبوها عمداً وإصراراً
وبخساسة ١٩

ها هو ذا التحقيق الميدانى الذى أجراه - برغم الأخطار والمحاذير -
الكاتب الصحافى «روجر أوك»، وهو بمثابة «وثيقة» دامغة..

تحت عنوان: «البونسيات المغتصابات - إنهن عشرات الآلاف قرن
التخلص من الحمل الذى سببه الصربيون الأوغاد». وقال:

يبدو أنها كانت شابة جميلة. أما الآن، فوجهها خالٍ من تأثير الزمن
- إن الرعب الذى تعرضت له فى الشهور الماضية لن ينمحي من
الذاكرة مهما امتد العمر وتوالت الأيام. تحول لون شعرها الأسود
الفاحم إلى الأبيض الجليدى. وغطت التجاعيد وجهها قبل الأوان.
وعلى الرغم من الغطاء الرمادى المنسدل على كتفيها، فإنها ترتجف
من البرد القارس وتسعل فيهتز كل جسمها كما لو كانت - عجزاً
متداعية.. رمتها بنظرة متسائلة، فأسرعت تمد يدها المرتعشة وبها ورقة
صغيرة عليها كلمات ترجمتها لى مرافقتى الكرواتية الشابة إلى اللغة
الفرنسية: «الاسم: خديجة باليدج. الميلاد: سنة ١٩٥٢ فى البوسنة -
الهرسك. مسلمة. عذبت واغتصبت فحملت - بحاجة ماسة إلى
الرعاية». وفى طرف الوريقة توقيع غير واضح لطبيب.

كانت تجلس شاردة على مقعد بسيط فى بهو بارد كغرفة المشرحة،
داخل مبنى الصليب الأحمر العالمى بمدينة «كارلوفاك» الكرواتية. من

الواضح أنها لا تكثرث على الإطلاق بالغادين والرائحين من الرجال والنساء والأطفال الذين ترتسم على ملامحهم أشد مظاهر الإرهاق والهزال والاستياء. إنه مبنى قديم متهالك لإحدى وحدات الجيش اليوغوسلافى السابق، وقد تحول إلى مقر للجنة العليا للجائحين، التابعة للأمم المتحدة، خصص جانب منه لاستقبال العابرين (ترانسييت) من السجناء المعتقلين الكروات ومسلمى البوسنة الذين أطلق سراحهم.

تبعد «كارلوفاك» عن مدينة زغرب بنحو خمسين كيلو متراً، كانت من قبل مدينة صغيرة هادئة، إلى أن أصبحت منذ شهر أكتوبر المحطة الأولى لأولئك التعساء الألفين الذين سبق اعتقالهم لفترة تتراوح بين أسبوعين وشهر أو أكثر، وتعرضوا للتعذيب والجوع على أيدي الصرب داخل معسكرات الاعتقال الموجودة على أرض البوسنة.

على مقربة من المدفأة بمكتب الاستقبال، جلست خديجة، تتطلع إلى النافذة، ونظراتها الشاردة تؤكد أنها لا تبصر شيئاً مما يجرى فى الميدان الفسيح الذى يطل عليه المبنى، وهو غاص بالناس المتشحين بالسواد، برغم البرد القارس والضباب الكثيف. قبيل بداية العام الجديد، تم إطلاق سراح ألف معتقل آخرين. كل منهم يرتدى جلباباً أخضر وأزرق، قدمته منظمة الأمم المتحدة. هنا، بين البكاء والصراخ وأيضاً الفرح، يلتقى رجال بزوجاتهم وأطفالهم بعد فراق مأساوى دام بضعة شهور. فهذا أب حليق الرأس تماماً، يمد يديه المرتعشتين نحو زوجته

ليأخذ منها طفله الرضيع، ثم يضمه إلى صدره.

قالت خديجة: «يخجلني أن أحكى عن الأيام المريرة التي عشتها، وما كابدت فيها». كانت تتحدث بصوت خافت وهي مطرقة الراس، عيناها إلى الأرض. الجميع بالغرفة من العاملين بالصليب الأحمر، مشغولون بأعمالهم، فلم يلق أحدهم بالآلما دار بيننا من حوار، في حين راح مندوبون سويسريون وألمان يصخبون باتصالات تليفونية متوالية لمعرفة موعد وصول الفوج التالي من المطلق سراحهم.

قالت خديجة: «في أواخر شهر مايو، أقبل التشتيك (ميليشيا الصرب) إلى قريتنا القريبة من «بنجالوفا»، وهم يطلقون في الهواء أعيرة متوالية من مدافعهم الرشاشة. ثم أجبروا الأهالي على الخروج من بيوتهم إلى الشارع - ثم قذفوا البيوت بالقنابل فاشتعلت كلها على الفور.. حاول الأهالي المقاومة، ولكن ماذا يفعلون بدون أسلحة لديهم؟ إن القلائل الذين كانوا يملكون بنادق رحلوا بعيداً إلى الجبهة. انتقى جنود الصرب نحو ثلاثين من الرجال العزل وأخذوا يضربونهم أمامنا بوحشية وكأنهم يعذبون حيوانات برية».

جمعوا الرجال الأصحاء، وكان من بينهم زوج خديجة، وجروهم حفاة إلى مكان مجهول، وانقطعت بذلك أخبارهم، مثلما انقطعت عن خديجة من شهور أخبار ولديها الكبيرين منذ أن سافرا للقتال مع جيش البوسنيين. على فترات متقطعة كانت النساء بالقرية يسمعن

وابلاً من طلقات الرشاشات يصحبها صراخ مفزع. بقيت وحيدة مع أطفالها، وأصغرهم عمره اثنا عشر شهراً. حاولت جاهدة أن تطفئ النيران التي اشتعلت في بيتها والتهمت بقاتها ودجاجاتها.. ظلّ النساء بالقرية بمفردهن مع أطفالهن مدة يومين في مساكن متفحمة، ولا يدرين ماذا يفعلن، ثم أقبلت قافلة من السيارات الصاخبة، أسرع من بها من «الرجال» لإخراج النساء المذعورات عنوة: «بينما كنت أرضع طفلي الصغير، اندفع أربعة من التشييتيك المسلحين وهم في حالة سكر يمين، وألقوا بأنفسهم واحداً تلو الآخر فوق ابنتي «أميرة» ذات الخمسة عشر عاماً!!

دافعتهم الفتاة المسكينة وهي تبكي وتصرخ وإخوتها وأخواتها الأطفال مذعورون. حاولت الأم أن تتدخل لحمايتهم، ولكنها تلقت ضربة شديدة من عصا غليظة أدمت رأسها وأفقدتها الوعي. ثم سحبوا الفتاة وهي أقرب إلى الإغماء، وألقوا بها في سيارة نقل عسكرية مكتظة بأكثر من خمسين امرأة أكبرهن في سن الخمسين وأصغرهن في الرابعة عشرة!

قالت خديجة وهي تجّهش بالبكاء: «اصطحبوا هؤلاء النسوة لاغتصابهن. أما من بقي في القرية من جنود الميليشيا فقد جمعوا في الطريق كل من بقي من السكان، وساقوهم حفاة تحت تهديد السلاح، ومن لم يستطع المشي من المسنين والمرضى، ذبحوهم ذبحاً

بالسكاكين أمام أعين الجميع» .

بعد ذلك بأيام، التقت خديجة بأطفالها فى مركز للالتقاء والفرز يقع أيضاً فى دائرة «بنجا لوقا». ثم سُحِن نحو أربعمئة شخص - غالبيتهم من النساء والأطفال - فى عربة قطار من عربات نقل الحيوانات.

قالت خديجة: «استرجعت ذاكرتى مناظر من أفلام الحرب العالمية الثانية وقطارات النازى التى كان يتكدس فيها المقبوض عليهم وهم يُساقون إلى معسكرات الموت.. ظل القطار يجرى دائراً حول البوسنة طوال أربع وعشرين ساعة، لم يقدم فيها طعام ولا ماء إلى الأبرياء المعدّبين فى عربة الهلاك. مات كثير من الأطفال الرضع خلال الرحلة، وطوال الرحلة، كنا وقوفاً متحاشرين، أو نياماً على القش، نقضى حاجتنا فى مكاننا، إذ لا مفر، ولا يوجد مرحاض!»

فى البداية، نُقلت خديجة وأطفالها وشركاؤهم فى مسيرة العذاب إلى معسكر «مانچاكا» وكان مزرعة تقع فى أقصى الشمال من البوسنة قرب الحدود الكرواتية. مع مطلع صيف عام ١٩٩٢ اختار الصربيون ١١٥ مزرعة وحظيرة مثل هذا المعسكر بالمنطقة ذاتها، وزجوا فيها بنحو ١٣٠ ألفاً من السجناء والمعتقلين. فكانت «مانچاكا» من أوائل معسكرات الاعتقال التى اكتشفتها الصحافة العالمية، وزارها ممثلو الصليب الأحمر.

استخدمت حظائر الماشية كعنابر وزنانات لإقامة المعتقلين، وأحيطت بالأسلاك الشائكة والألغام، وتم عزل الرجال عن النساء والأطفال، وكان التعذيب - بكل أشكاله وأدواته - وإطفاء السجائر في الأجسام، أمراً يحدث باستمرار وبصورة تلقائية.

قالت خديجة: «لم نكن نأكل إلا أقل القليل: قطعة من الخبز لسته أو سبعة أشخاص، وأحياناً طبقاً واحداً لهذا العدد، به يقول أو أرز. أما وسائل الصرف الصحية فمعدومة تقريباً. وسرعان ما تتجمع النفايات - مع البراز - ولا تجد من يحملها..!»

ثم كانت ذروة المأساة، عند مجيء الصرب في كل ليلة، للبحث الدوري عن النساء والفتيات لاغتصابهن في قاعة مجاورة.

قالت خديجة: «لقد فعلوا ذلك مع فتاة عمرها ست سنوات! هذا غير متصور. إننى أشعر بالخجل. لقد اغتصبني عشرات «الرجال» عشرات المرات. وكان أسلوبهم الذى لا يتغير هو ضربنا بهراوة أو بقضيب معدنى قبل الاعتداء الوحشى علينا. والأدهى من ذلك وأمر، شعورى بأن أطفالى سيدركون ما يفعل بأهمهم».

كم بقيت خديجة فى «مانجاكا»؟ شهرين.. ثلاثة؟ لم تعد تذكر جيداً. لقد فقدت الإحساس بالزمن. بعدها نقلت مع أطفالها إلى معسكر اعتقال آخر، فى البوسنة أيضاً. بمنطقة الصربيين حيث يوجد نحو ثلاثة آلاف من المعتقلين. هنا أيضاً تكس المسنون والنساء

والأطفال داخل عشش من الخشب، معظمهم كان يرقد على الأرض، والقليل المحظوظ من يتمكن من الحصول على وسادة من القش.

إنه الخريف، والليل بارد ثقيل الوطأة. واختلاط كامل بين الرجال والنساء، والأطفال إما مرضى لا يتحركون، أو يكاد يقتلهم الهزال وهم ملطخون بالأقذار - ومنها البول والنفايات الآدمية المكومة - التي تملأ المكان. والطعام دائماً لا يكفي، ولا يتحسن، مع استمرار التعذيب، والكى بالسجائر المشتعلة، والاغتصاب، والقتل.

قالت خديجة: «أذكر أنهم - أى الحراس الصرب - جمعونا ذات يوم فى ملعب لكرة القدم وتركونا لساعات وساعات فى العراء، وكان يحلو لهم - للتسلية - أن يضربونا كلما مروا بنا، حتى الأطفال لم يسلموا من ضربهم يرغم دفاعنا المستميت عنهم».

تحسنت الأحوال قليلا بعد زيارة المسؤولين بمنظمة الصليب الأحمر ومعهم فريق من الصحفيين.

قالت خديجة: «نقلوني إلى معسكر آخر فى «جاشوكى» حيث فحصى طبيب، وأخبرنى أننى حامل فى توأم.. من المستحيل عندى أن أبقي على هذا الحمل. أفلحت بنفسى فى التخلص من الحمل بأن أكلت بعض الأعشاب السامة الموجودة بأرض المعسكر. ثم أعادوا اغتصابى بالمعسكر، وأصبحت حاملا مرة أخرى، لم أفلح فى

إجهاضه، وتأخر بي الوقت لكي أفعل شيئاً، لكنني قررت الاستغناء عن هذا المولود الذي جاء قسراً من وحش صربي».

خيم الهدوء لفترة قصيرة على مكتب الصليب الأحمر بعد خلوه من الناس. أخذت الثلوج تتساقط في الخارج. بالرغم من حرارة المدفئة، إنتابت خديجة قشعريرة جعلتها تتدثر بملحفة. أقبلت المسئولة عن مركز «كارلوفاك» واسمها: «الساندرا موريلي». إنها شابة إيطالية تضع نظارة وشعرها مجعد، وتقوم بأول مهمة تابعة للصليب الأحمر الدولي من خلال منظمة كاثوليكية للإسعاف. قالت لي: «لست أدري ماذا أفعل. إن هذه السيدة (خديجة) بحاجة إلى علاج نفسي أكثر من جسماني، إنها بحق منهاره مكلمة».

ليس في مقدور «الساندرا» وزميلاتها إلا تقديم الإسعافات الأولية والمساعدات الميدانية العاجلة من المواد والطعام. وتابعت حديثها: «نبحث بالأمس في تحديد مكان «أميرة» ابنة خديجة، أحاول نقلها قرب سرايشو لأحد السجون العشرين التي أقامها الصرب! ويسعى الصليب الأحمر إلى الإفراج عنها بطريقة متوارية لتبادل المسجونين والأسرى، ومن حسن حظ خديجة أنها تلاقى أخيراً - هنا في كارلوفاك - مع زوجها وكل أطفالها. وليس هذا متاحاً لكثيرين»!

في حي «دانية» في ضواحي كارلوفاك، تم تجميع نحو خمسين أسرة في مبنى قديم كان مخصصاً للعزاب. في حجرة منعزلة بين

حقول البقول، تسكن الآن مؤقتاً أسرة خديجة، مساحة الحجرة عشرة مترات مربعة، تقيم فيها أربع أسر معاً. بالسقف فتحة تبدو منها السماء الرمادية نهاراً، المظلمة ليلاً. إنها ساعة تناول العشاء. شريف، أصغر أبناء خديجة منهمك في قضاية رجل دجاجة، نظراته الحزينة متعلقة بها، في حين يلتهم إخوته طعامهم من صحيفة بها قطع لحم الضأن في كمية من الحساء. ليس بالحجرة منضدة ولا كراسي، فالمكان ضيق لا يتسع. في نهاية الممر، مطبخ صغير ومغسلة. أدار زوج خديجة ظهره وهو يأكل في صمت. لم ينطق بكلمة، يلبس سروالاً بالياً، وتجاوز في العمر الستين. أحد ذراعيه أصيب بالشلل. قالت خديجة: «لقد عذبه بقسوة، وتهتك ذراعه من تأثير إطفاء السجائر المشتعلة بكثرة فيه»!

لا يبدو أن بالأطفال إصابات خطيرة. لكن المؤكد، أنهم رأوا مناظر وأشياء رهيبة مفزعة، ما كان يجب أن يشاهدوها قط. ولن تمحى من ذاكرتهم أبداً.

إن صور الحرب والمعارك، وإلقاء القذائف على سرايفو العاصمة المحاصرة، ربما طفت على السطح فتراجعت قليلاً من ذاكرة الناس - والعالم - مأساة الاغتصاب. إن ممارسته المنتظمة والمستمرة من جانب «المقاتلين» الصرب هو في زعمهم من استراتيجيتهم في التخويف: فمن أجل «التطهير العرقي» يريد الصرب إرهاب المسلمين البوسنيين وإصابتهم بالانهيار النفسي، لإجبارهم على مغادرة بيوتهم وأراضيهم.

وطبقاً لتقارير الكنيسة الكرواتية ومنظمات الإغاثة في زغرب، فإن عدداً يتراوح بين عشرين وثلاثين ألف امرأة من أسرى المعتقلات الصربية، هم الآن في فترة الحمل! في ١٧ ديسمبر الماضي (١٩٩٢) اعتبرت اللجنة القانونية التابعة للأمم المتحدة أن الاغتصاب يعد أحد جرائم الحرب، وقد ارتكب الصربيون من هذه الجريمة ما يفوق العد والحصر.

في تقرير صادر عن مستشفيات زغرب وآخر عن الصليب الأحمر، أن عدداً كبيراً من المسلمات ضحايا هذا الإعتداء الآثم حاول الانتحار لقد فضل هؤلاء النسوة - برغم مخالفة التقاليد والعقيدة - الموت على الحياة بعد تعرضهن لتلك الأهوال. وثبت أن عدداً كبيراً من الأزواج المسلمين قتل الزوجات اللاتي أصابهن هذا الدنس، ويمكن التقدير بأن ٨٠٪ من النساء الحوامل إما أفلحن في الإجهاض أو الانتحار، وإما أن هناك عدداً من الأمهات ترك - بلا رجعة - مواليد هذا الحمل المفزع، وتولت الجمعيات الخيرية الكاثوليكية رعاية هؤلاء الأطفال!

إذا كانت تلك الجرائم الشنيعة قد برزت أخبارها ابتداء من شهر أبريل ١٩٩٢، فهي في الحقيقة عرفت منذ منتصف صيف عام ١٩٩١ مع بداية التصريح «بالتطهير العرقي» عقب الإعلان عن استقلال كرواتيا في ٢٥ يونيو من ذلك العام. ثم جاء قرار حظر تصدير السلاح إلى يوغوسلافيا في نوفمبر ١٩٩١. واستمر عدوان الصرب - المتخمين بالأسلحة - وارتكابهم لاعتداءات مشينة على الكروات

والبوسنيين. مثلاً: فى ١٤ أكتوبر ١٩٩١، كان الأب «ميل بيشيش» وهو قسيس كاثوليكي كرواتى، يعبر طريقاً بقرية «فاجاناك» ورفقته راهبتان، فاستوقفه جنود من ميليشيا الصرب، ثم اقتادوهم إلى بدروم مقر الشرطة المحلية الصربية. وهناك استمر ضربهم وتعذيبهم والاعتداء الجنسى على ثلاثتهم طوال الليل، ثم أفرج عنهم فى اليوم التالى. وطبقاً لما أعلنه رسمياً دكتور «كلايد سنو» الطبيب الشرعى والعضو بفريق الأمم المتحدة الذى يرأسه رئيس وزراء بولندا السابق «مازوفيسكى»، فإن عدداً كبيراً من المقابر الجماعية المليئة بالجثث عثر عليه بشرق كرواتيا بضواحي مدينة «فوكوفار» وذلك فى عام ١٩٩١.

وعلى غرار مركز العبور (الترانسيست) أو الفرز والإيواء المؤقت فى كارلوفاك للذين نجوا من التعذيب والهلاك، فهناك فى مدينة «زغرب» ثلاثة مراكز مشابهة فى الشرق والجنوب ووسط المدينة، وهذا الأخير يضم عشرين ألفاً من المهاجرين الفارين من قرأهم التى احتلها الصربيون، ومعظم هؤلاء من مسلمى البوسنة. يرتفع على مدخل هذا المركز (أو المعسكر) علم الأمم المتحدة، ولافتة كبيرة عليها آيات من القرآن. إلا أن الأمطار الغزيرة والثلوج حولت المكان إلى ما يشبه مستوقد حرق النفايات! تولى مهمة الترجمة لنا - نحن الصحفيين - طالب شاب يدعى: «أمير»، بادرنا بقوله: «إننى أعيش فى مونتريال بكندا مع عائلتى. لكننى قررت الهجىء إلى البوسنة لمساعدة إخوانى وأخواتى، لأن هذا واجب ومشاركة فى الجهاد».

فى قاعة الطعام، موائد كبيرة مرصوفة يجلس إليها رجال ونساء وأطفال، تظهر على ملامحهم وثيابهم البالية علامات الهزال والبؤس والإرهاق الشديد. أحاديث الرجال تتركز حول كيفية حصولهم على السلاح للمقتال وردع الصرب المعتدين وإيجاد مأوى آمن لزوجاتهم وأولادهم - اقترب من مائدتنا شاب فى سن العشرين، بيده طبق فيه قليل من الحساء، يطلقون عليه هنا اسم «المشجوج»، هكذا أخبرنا «أمير» والسبب: بوجهه خطوط مائلة غائرة من أثر جروح خطيرة. بأعجوبة، سلمت عيناه الزرقاوتان «هكذا فعل بى الصرب» قال يحدثنا بهدوء «نرمين كاراچيك»: «لقد هاجموا القرية التى كنت أسكنها «سيليناك» القرية من «بانجالوفا» .

فى هذا اليوم - ١٥ يوليو - كان نرمين يتجول ومعه كلبه بين أشجار الغابة التى يطل على حافتها بيته، فسمع أصوات طلقات نارية، فاختفى خلف الأشجار العالية المنحدرة نحو القرية، ومن موقعه، استطاع أن يرقب بوضوح ما يجرى من بعيد: «أخرج التشيتنك - جنود الميليشيا الصربية - الرجال رافعين أيديهم، ثم أخذوا فى البحث عن الأسلحة. لكن القلة القليلة من المسلمين حملة السلاح لم يكونوا هناك، فقد ذهبوا للمقتال فى المواقع.. وبعد وقت قصير اختاروا نحو عشرة من الشباب أوقفوهم أمام حائط ثم أطلقوا النار عليهم أمام الجميع، ثم دفعوا بقية الأهالى للركوب فى عربات نقل حربية» .

ظل نرمين هائماً على وجه لمدة ساعات متجولاً داخل الغابة، لا يدري أين يذهب. وعندما هبط ظلام الليل، التقى بثلاثة شبان من القرية في طريقهم نحو الشمال.

يقول: «فى الصباح، استوقفنا جنود من الصرب، وتوجهوا بنا إلى بيت جعلوه مقراً للقيادة المحلية، وهناك انهالوا علينا بالضرب. رأينا بعض المعتقلين بموتون أثناء التعذيب. وفى حجرة مجاورة، أبصرنا أحد البوسنيين وهو معلق كالذبيحة من رجله فى خطاف كالذى يستعمله الجزارون، لقد أنفذ الصربيون الخطاف فى رجله وهو ما زال حياً، فأغرقت الدماء جسمه وملابسه الممزقة. سددت أذنى بأصابعى حتى لا أسمع صراخه المفزع. بين الحين والحين، يأتى الجلادون الصرب، وأيديهم ملطخة بالدم، يبحثون عن ضحية أخرى يعذبونها ثم يطلقون عليها الرصاص. تعودنا سماع طلقات الرصاص الغادرة^(١). قررت - مع ثلاثة أصدقاء - أن نحاول الهرب.. انتهزنا فرصة نوم حراسنا، فأسرعنا فى جنح الليل بقتل اثنين منهم، وانطلقنا بأقصى جهدنا عبر نافذة كسرنا زجاجها دون أن نلتفت وراءنا. فانهال علينا وإبل من الطلقات، كان بعضها يمرق مصفراً قرب أذنى. سمعت صراخاً، لم أعبأ ولم ألتفت، مضيت بكل سرعتى. فلما توقف الصراخ وتباعد صوت طلقات الرصاص، وجدت نفسى وحيداً، مات أصدقائى، راحوا - استراحوا - مع الشهداء».

(١) بالمناسبة: ليست هذه مشاهد غريبة على الذين اعتقلوا فى مصر من قبل، فى أعوام الخمسينيات الماضية.

مرة أخرى يجد «نرمين كارچيك» نفسه هائماً منفرداً متجولاً بين القرى البوسنية، محاولاً قدر ما يستطيع أن يتجنب الاقتراب من الجسور (الكبارى) ومخافر التفتيش والحراسة العسكرية. أمضى على هذا الحال ثلاثة أيام بلياليها، لا يأكل إلا ما يصادفه من أعشاب، ويشرب من المياه الراكدة إن لم يعثر على نهر قريب. لم يحاول الاقتراب من القرى المهجورة. ومع ذلك فقد وقع فى الأسر للمرة الثانية!

«سوف نستبقيك لتحفر القبور». هكذا قال له الصربون.

كان عليه أن يظل طوال النهار يعمل فى الحفر ودفن جثث القتلى من الرجال والنساء، وحتى الأطفال، الذين ذبحوا أو أُطلق عليهم الرصاص!

تلك بعض الأمثلة وغيرها كثير مما ورد فى تقارير هيئة إغاثة اللاجئين التابعة للأمم المتحدة وغيرها من المؤسسات الدولية المعنية، وفيها شهادات الآلاف الذين عذبهم الصرب واعتدوا عليهم وعليهن. وهناك قائمة واحدة تضم أسماء نحو ألفين من الضباط وصف ضباط وجنود ميليشيا الصرب الذين ارتكبوا جرائم لا إنسانية، تضعهم فى زمرة مجرمى الحرب. ويطالب زعيم الطائفة الاسلامية فى زغرب «سيفكو عمر بازيش» بتكوين لجنة للتحقيق فى جرائم الحرب على غرار ماحدث بمحكمة «نورمبرج» التى تشكلت عقب الحرب العالمية الثانية وحاكمت زعماء النازى الألمان.

إن اسم واحد من أكبر المتهمين بارتكاب جرائم تعذيب واعتداء صربي، معروف في كل الأوساط، ونشرت صورته واعترافاته في كثير من الصحف العالمية. إنه من جنود الصرب ويدعى: «بوريسلاف هيراك»: طويل القامة نحيف الجسم، مربع الوجه، حليق شعر الرس تماماً، نظراته زائغة، يبلغ من العمر واحداً وعشرين عاماً. ولا يشك أحد في أنه وحش فاتك. في أول اعترافاته، ذكر أنه قتل وذبح على الأقل تسعة بوسنياً في الفترة بين يونيو وأكتوبر ١٩٩٢. في بداية نوفمبر التالي، أخطأ الطريق وهو يقود سيارة مسرعة، فألقى نفسه فجأة أمام نقطة تفتيش للمقاتلين البوسنيين. اعتقلوه على الفور، وزجوا به في أحد سجون سراييفو. ثم شرعوا في استجوابه. فانهار واعترف تفصيلاً للمحققين.

قال: «كنت أجد صعوبة في النوم ليلاً فالكوابيس تتناوب، أبصرت طفلة عمرها عشر سنوات وهي تحاول الاختباء خلف جدتها بعد أن أطلقت الرصاص من مدفعي الرشاش على أسرتها؛ الأبوين والإخوة والأخوات الواقفين بجوار حائط. أطلقت عليهم ثلاث دفعات من الرصاص، عندئذ لم أستطع التفرقة بين لون الدم ولون رداها الأحمر، أصبح هذا اللون مثيراً ومألوفاً لدىّ، شاهدت مع غيري مقتل مائتين على الأقل من مسلمي البوسنة والكرواتيين، كان قادتنا يحرضوننا على القتل ويشجعوننا على اغتصاب أكبر عدد من المسلمات.

بالقرب من «فوجوسكا» يوجد فندق «مقهى سونيا» احتجز فيه عدد كبير من النساء المعتقلات، كنت أذهب إلى هذا الفندق بانتظام كل أربعة أيام لاغتصاب فتيات. كان قوادنا يأمرونا بالذهاب إلى هناك لرفع روحنا المعنوية، كان عدد النساء في هذا الفندق يزداد كل يوم. لم يكن لدينا طعام يكفي لتلك الأعداد المتزايدة، فكنا نصحب بعضهن إلى التلال المجاورة بانتظام، ثم نصرعهن...!!

في يونيو ١٩٩٢، وفي ذات المنطقة، قاد «بوريسلاف» وحدة صربية أطلق عليها اسم: «مجموعة المهمة الخاصة». بهذه الوحدة، قتل مرة واحدة بحقل مجاور، مائة وعشرين رجلاً وامرأة. ثم ألقى هو ورفاقه بجث الضحايا - وبعضهم كان لا يزال حياً - في حفرة كبيرة تشتعل فيها النيران. ثم يضيف: «كان قوادنا يعلموننا كيف نذبح المسلمين، بالشرح لنا والتدريب على خنازير بالقرية»!

ينتظر «بوريسلاف هيراك» محاكمته، وهو على يقين من صدور الحكم بإعدامه، ومع ذلك فهو لا يشعر مطلقاً بالذنب، مقرأ بأنه كان أحياناً يفعل ذلك من أجل الحصول على نقود وحلّ الضحايا، ومن أجل الفوز بفتيات جميلات يفعل بهن ما يشاء، وأيضاً من أجل شراء جهاز تسجيل وسيارة!

«إن الضباط الصرب وزملائى الأكبر سناً منى أقنعونى بأنه واجب محتم علىّ أن أقضى نهائياً على كل المسلمين، لأنهم يريدون إقامة

حكومة إسلامية فى البوسنة» هكذا جاء بالنص فى اعترافاته.

وفقاً لما رواه أبواه، فإنه «بوريسلاف هيراك» كانا شاباً سوياً وديعاً تماماً، تربى فى سراييفو داخل حى يسكنه ويتردد عليه الصرب والكروات والمسلمون. إن جدته لأمه كرواتية، وصهره مسلم. فكان كافياً أن توضع فى يديه بندقية.

... ..

وبعد:

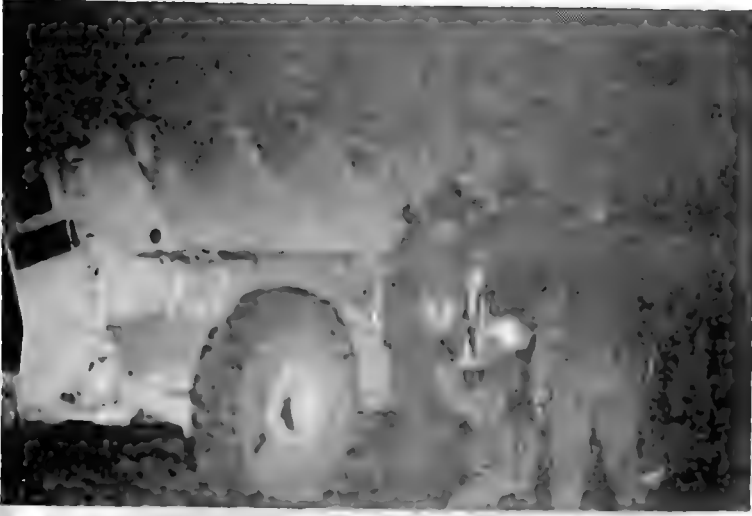
وماذا بعد!؟

لعل من الملائم أن نختم الحديث عن هذه المأساة المروعة، المؤرقة، المخجلة، بكلمات وردت فى حوار مع الكاتب الأديب الفرنسى - أيضاً - «جان إدرن هالييه» جاء فيه حرفياً:

«إن النظام العالمى الجديد هو بلا نظام... إن «المتحالفين» لا يتقبلون إلا الإسلام الواهى المبهم، ويحظرون على أية دولة عربية التغفل فى عالم التكنولوجيا والعلوم والصناعة. وهنا يحفر الغرب قبره بابتعاث أعداد كبيرة من المتطرفين المتشددىن السلفىين..».

فهل من مدكر!؟

ألا قد بلغت.. اللهم فاشهد!



تفتيش البوسنيين العابرين إلى قراهم تحت حماية الأمم المتحدة!



جثث الضحايا الأبرياء من المدنيين المسلمين تتكدس في مشرحة سراييفو التي صاقت بأعدادها.



ملعب لكرة القدم فى مدينة كوسوفو تحول بأجمعه إلى مقبرة للشهداء المسلمين بعد أن
ازدحمت المقابر بالضحايا



في مواجهة الموت: هذا الشاب المدني البوسني يواجه رصاص «المقاتلين» الصرب، بعد ثوانٍ
سيكون في عداد الشهداء



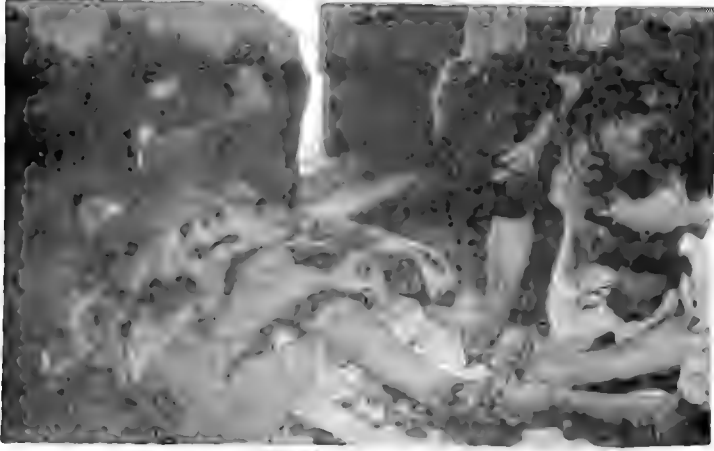
يقول العنوان: ٦٠ ألف امرأة بوسنية مثلها البوسنة اغتصبنهن الصرب!.



فتيان من مسلمى البوسنة - بعضهم فى سن ١٢ سنة - لحظة إطلاق الرشاشات الصربية
عليهم فأردتهم جميعا بالطريق وقتل معهم رجالان وامرأتان من المسلمين المدنيين، من
مسافة ١٥٠ مترا !.



جنت الضحيا اليوسيين للقي في الأنهار حتى تعمق



العمليات الجراحية العاجلة تجري بدون تخدير



عوان محلة «نايم».

حرائم بلا عقاب وتحت الصورة التي يبدو فيها جندى من الصرب يدوس بقدمه حثة الصحية
البريئة: صربي يفرض الإعدام في «فوكوفار».



أصبحوا من اللاجئيل يتزاحمون على الماء البادر وجوده فى البوسة



بكاء الأم والأب الذى يحمل طفله المقتول بوحشية



تسعة وعشرون ضحية من المسلمين قتلهم الصرب معا وهم في الطريق إلى قريتهم



كل الحزن والأسى والرعب على وجوه الأمهات والأطفال المسلمين الذين دمرت بيوتها
وفروا من الهلاك



سرائيڻو: هڙلاءِ الٰهرياءِ علي وشك ان يَقتلوا



وهكذا فعلا الصربون مع المسلمين ١٩



طابور من أهالي البوسنة لإحضار مياه للشرب

الفهرس

الصفحة	الموضوع
٥	مقدمة
٥	هوان أمة وإبادة شعب
٦	فساد، وكساد، وغشاء ، فضجر
١١	يوغوسلافيا والصرب
١٥	يوغوسلافيا والكروات
١٩	يوغوسلافيا والبوسنة
٢٣	سلطان السلاطين
٣٨	موهاك
٤٦	الساعة الخامسة
٤٧	فيينا (عاصمة النمسا)
٦٥	آخر عمالقة القرن العسكريين
٧٩	بريوني - يوغوسلافيا عام ١٩٥٦
٨٣	إن الكبار أيضاً يخطفون.. ويضجرون
٨٥	ميراث مشغل بالهموم.. والديون
٨٩	لوبليانا.. عاصمة سلوفينيا
٩٣	بلد المذابح واللا إنسانية
٩٧	لماذا؟ .. مجرد سؤال

هذا الكتاب ...

مأساة كاملة يعيشها شعب كان آمناً مطمئناً . وعلى مرأى ومسمع من العالم كله ومؤسساته الدولية تُرتكب أبشع الجرائم على أرضه كل يوم ، وعلى مدار أكثر من عام ، وتتابع وسائل الاعلام فصول المأساة المروعة التي لا تريد - أو لا يُراد لها - أن تنتهى !

وكم من أنباء وأراء متضاربة متناقضة ، وأحياناً مغلوطة مزيفة ، ترددها التحليلات والتعليقات ، وإن كان الحق فيها لا يحتاج إلى ذكاء خارق لاستظهاره، ولا إلى عبقرية فذة لإبراز معالنه .

إن شعب «البوسنة والهرسك» مع كل العذاب والدمار الذى يتعرض له ، يضع العالم المعاصر - وأمة الإسلام خاصة - أمام واقع تكتنفه الماراة والهوان ، ولعله يفتح القلوب والأبصار إلى تدبر قانون السماء : «إن الله لا يُغَيِّرُ ما بقوم حتى يُغَيِّرُوا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرَدَّ له وما لهم من دُونه من والٍ» .

فهل نحن فاعلون ؟

الناشر

742

